

الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية



ابو الأعلى المودودي





ابو الأعلى المودودي

الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية

دار الفكر بدمشق



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لانبي بعده

وبعد فها نحن اولاء نقدم اليوم إلى قراء العربية محاضرة جليلة ورسالة نفيسة للاستاذ السيد أبي الأعلى المودودي ـ امير الجماعة الاسلامية في باكستان . ولعمر الحق ، انها محاضرة جليلة المعنى ، خطيرة المبنى ، لأنها تبحث في موضوع هام وتتناول بالدرس والتحليل مسألة طالما اشكل على المفكرين حلها واستعصى على أولي العلم فك معضلتها . وذلك ان الناس — أولاً — يتحيرون في ارتفاع كلمة الكفر وانتكاس راية الاسلام في كل مكان ، ثم يَشْكل عليهم قول الله تعالى : (وأنتُمْ الاَعْلَوْنَ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ) . ويجرهم هذا وذلك إلى تأويلات بعيدة وأقوال واهية ضعيفة . ومن الناس (١)

(١) اشارة الى رجل في باكستان ، يتزعم حزباً سياسياً إلى الآن، وكتابه (تذكرة) بالعربية والاردية مشحون بمثل هذه الترهات .

من اغتر بهذه الحال وبمثل تلك الآي الكريمة فذهب يقول ان الاوربيين هم المسلمون الحقيقيون لأنهم هم الغالبون ، وأسس حزباً وقام بحركة عنيفة ، ثم لم يرجع الا بخفي حنين .

القيت هذه الخطبة في مؤتمر الجماعة الاسلامية السنوي المنعقد في الـ ١٣٦٤/٥/٨ هـ ١٩٤٥/٤/٣١ م امام جمع من اعضاء الجماعة وانصارها والمتأثرين بدعوتها ، في دارها المركزية الواقعة في شرقي بنجاب ، وكان كاتب هذه السطور ممن حضر الاجتماع (المؤتمر) واستمع الى هذه الخطبة المرتجلة ، ولم ينس الآن ما كان لها من أثر عميق في نفوس الحاضرين .

أكتب هذه الكلمة ، وأرى بين يديّ صور الأصدقاء والزملاء والاخوان ماثلة ، وعلى وجوههم اثر مما في قلوبهم من التأثر البالغ والتلهف الشديد على صحة الخطيب ومستقبل الدعوة في بلاد الهند ، إذ جاءت في ختـام الخطبة كلمات بهذا الشأن . وجملة القول أنها كانت خطبة تاريخية في تاريخ الدعوة وكان لها أثرها المرجو .

قلت انها كانت خطبة مرتجلة ، الا انهـا دونت في ما بعد ، وأعاد الاستاذ فيها النظر ونشرت بالاردية ، لغة الخطابـة والكتابة ولسان عامة مسلمي هذا القطر . وعني بتعريبهـا

الاخ العزيز السيد محمد عاصم الحداد، زميلي في دار العروبة، وراجعها هذا العاجز، فعسى أن تنال حظوة لدى قـراء العربية ويعم نفعها .

والله نسأل أن يوفقنا لسبيل الخير والرشاد ويجنبنا مزالق الأقدام ومسالك الزلل والفساد . فانـه هو المرجع وبيده كل شيء وعليه التكلان .

بلدة راولبند (باكستان)
في ٢٣ / ١٢ / ١٣٧١هـ

مسعود الندوي

الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية

لعله قد تبين لكم من كتاباتنـا ورسائلنا أن غايتنـا النهائية التي نقصدها من وراء ما نحن بصدده الآن من الكفاح انما هي « إحداث الانقلاب فى القيادة » واعني بذلك أن أقصى ما نبتغي الوصول اليه والظفر بـه في هذه الدنيا ان نطهر الارض من ادناس قيادة الفسقة الفجرة وسيادتهم ، ونقيم فيها نظام الامامة الصالحة الراشدة . فهذا السعي والكفاح المتواصل نراه اكبر وأنجح وسيلة موصلة الى نيل رضا الرب تعالى وابتغاء وجهه الاعلى في الدنيا والآخرة .

ومن دواعي الاسـف اننا نشاهد النـاس اليوم جميعاً — المسلمين منهم وغير المسلمين — غافلين عن هـذا الذي جعلناه غايتنا ومطمح أبصارنا . أما المسلمون ، فلأنهم يعدونه غاية سياسية بحتة ولا يكادون يفطنون لمكانته وأهميتـه في الدين . وأما غير المسلمين ، فبما نشؤوا عليه من التعصـب على الاسلام ولجهلهم وقلة معرفتهم بتعاليمه ، لايعلمون أصلاً أن

قيادة الفجار والفساق انما هي منشأ جميع الكوارث والنكبات التي مني بها الجنس البشري ، وأن سعادة البشر وغبطته انما تتوقف على أن يكون زمام أمور الدنيا بايدي الصالحين العادلين .
فكل ما نشاهده اليوم في الدنيا من الفساد والظلم والطغيان والفوضى الشاملة العالمية في الاخلاق البشرية ، وما سرى من السم الفتاك في عروق الحضارة والعمران والسياسة البشرية ، وأن جميع وسائل الارض وسائر القوى التي ابتدعتها العلوم البشرية تستعمل في القضاء على الانسان واهلاكه وتدميره بدل أن تستخدم في اسعاده واعداد الوسائل والاسباب لفلاحه وهنائه وغبطته ، فانما تعود تبعة كل ذلك على أن الارض ، وان لم تكن خالية من الرجال ذوي الصلاح والعفاف والامانة ، قد استبد بزمام الأمر فيها رجال انحرفوا عن الله تبارك وتعالى وانغمسوا باجمعهم في عبودية المادة ، وتكالبوا على شهوات هذه الدنيا الدنيئة . فان أراد أحد اليوم ان يطهر الارض ويستبدل فيها الصلاح بالفساد ؛ والأمن بالاضطراب ؛ والاخلاق الزكية بالاباحية ؛ والحسنات بالسيئات ، لا يكفيه أبداً أن يدعوهم إلى الخير ويعظهم بتقوى الله وخشيته ويرغبهم في الاخلاق الحسنة ، بل من المحتوم عليه أن يجمع من عناصر الانسانية الصالحة مايتمكن من جمعه ويجعل منها كتلة

متضامنة وقوة جماعية تمكنه من انتزاع زمام الأمر من الذين يقودون موكب الحضارة في الدنيا ، وإحداث الانقلاب المنشود في زعامة الارض وامامتها .

اهمية الزعامة وخطورتها :

وكل من له أدنى بصيرة بمسائل الحياة الانسانية ، لايخفى عليه ان المسألة التي تتوقف عليها قضية صلاح الشؤون البشرية وفسادها ، انما هي مسألة زعامة الشؤون البشرية ومن بيده زمام أمرها . وذلك كما تشاهد في القطار أنه لايجري إلا إلى الجهة التي يوجهه اليها سائقـــه ، وأن لابد للركاب أن يسافروا ــ طوعاً أو كرهاً ــ إلى تلك الجهة نفسها . فكذلك لايجري قطار المدنية الانسانية إلا الى جهة يوجهه اليها من بأيديهم زمام أمر تلك المدنية . ومن الظاهر البين انالانسانية بمجموعها لاتستطيع بحال من الاحوال أن تأبى السير على تلك الخطة التي قد رسمها لها الذين بأيديهم وسائل الارض وأسبابها طراً، ولهم الهيمنة كل الهيمنة على أزمة للأمر وبيدهم السلطة المطلقة في تدبير شؤون الانسانية ، وتتعلق بأذيالهم نفوس الجمهور وآمالهم ، وهم يملكون أدوات تكوين الأفكار والنظريات وصوغها في قوالب يحبونها ، واليهم المرجع في تنشئـة الطباع الفردية وانشاء النظام الجماعي وتحديد القيم الخلقية . فان كان هؤلاء الزعماء والقواد ممن يؤمنون بالله ويرجون

حسابه ، فلا بد لنظام الحياة بأسره ان يسير على طريق من الخير والرشد والصلاح ، وأن يعود الأشرار الخبثاء إلى كنف الدين ويصلحوا شؤونهم . وكذلك تنمو الحسنات ويزكو غراسها ، وأقل مـــا يكون من تأثير المجتمع في السيئات انها لاتربو ، ان لم تمحق وتنقرض آثارها. وأما إذا كانت هذه السلطة ، سلطة الزعامة والقيادة والامامة بأيدي رجال انحرفوا عن الله ورسولهواتبعوا الشهوات وانغمسوا في الفجور والطغيان ، فلا محالة أن يسير نظام الحياة بقضة وقضيضه على البغي والعدوان والفحشاء ، ويدب دبيبالفساد والفوضى في الافكار والنظريات والعلوم والآداب والسياسة والمدنية والثقافة والعمران والاخلاق والمعاملات والعدالةوالقانون برمتها ، وتنمو السيئات ويستفحل أمرها ، وتأبى الأرض أن ترحب بالحسنات ، ويضن الماء والهواء ان يفيضا عليها شيئاً من القوت ، وتمتلىء الأرض ظلماً وجوراً . ففي مثل هذا النظام يسهل على المرء أن يسلك سبيل الشر ويصعب عليه ان يثبت على طريق الخير فضلاً عن ان يمشي عليها ويسير ؛ شأنه كشأن السائر في موكب من المواكب المحتشدة ، لايحتاج إلى بذل أي شيء من الجهد إذا أراد التوجّه إلى الجهة التي يقصدها الجمع ، بل هو يندفع اليها بدافع من الجمع قصداً ومن غيرقصد . وأما إذا أراد أن يتوجه إلى جهة تخالف

جهة الموكب ، فلا يكاد يقدر على ان يخطو بضع خطوات ولو استنفد فيها وسعه ، ويكون من شأنه أنه كلما تقدم خطوة ، دفعته موجة من الزحام الهائل خطوات إلى الوراء . فكذلك النظام الجماعي إذا بدأ يسير على سبل الكفر والعصيان بزعامة رجال من العصاة سهل على الأفراد والجماعات أن يسلكوا سبل الشر من غير أن يبذلوا شيئاً من جهودهم البتة . وأما إذا أرادوا السير على طريق غير ذلك الطريق المعوج ، فلا يمكنهم أن يتقدموا ولو بضع خطوات لما يواجهونه من مقاومة الزحام الجارف المعارض الذي يؤخرهم أميالاً وفراسخ إلى الوراء مهما استنفذوا من جهودهم للوقوف في وجهه .

وذلك الأمر لم يعد بعد حقيقة نظرية غامضة تحتاج إلى برهان ، بل الحوادث الماضية قد صيرته حقيقةظاهرة لا يمكن الجحود بها أو المكابرة فيها لكل من أوتي نصيباً من العلم والمعرفة . وحسبكم شاهداً على ذلك ما حدث في بلاد الهند في القرن الماضي من تبدل عظيم وانقلاب مدهش . أفلا ترون كيف تبدلت الأوضاع وتغيرت الآراء والنظريات وتحولت الطبائع والسجايا المتوارثة ، وتقلبت مناهج التفكير وأساليب النظر ، وطرأ الانقلاب والتغير على مقاييس الاخلاق

والمدنية وموازين الشرف والفخار ؟ فهل بقي فيهـا شيء سالماً من عواصـف التغير والانقلاب ؟ فمـاذا ترى سبب التغير والانقلاب الواقع في هذه الديار بين عشية وضحاها؟ أويسعكم أن تبينوا له سبباً غير أن الذين كان بيدهم زمام شؤون هذه البـلاد وكانوا متبوئين فيها مناصب الزعـامة والامارة طبعوا أخلاق أهلها وعقولهم وغرائزهم ومعاملاتهم ونظام مدنيتهم بطابعهم الخاص ، وصاغوها في ما شاؤوا من القوالب المعوجة ؟ ثم سرح النظر في الذين قاموا في وجه هذا الانقلاب ولم يألوا في مقاومته جهـداً إلى مَ كان مصيرهم ؟ أوفقوا أم أخفقوا في مسعاهم ، وإلى أي حد ؟ أوليس من باب الأمر الواقع المؤلم ان الذين كانوا في طليعة المقاومين بالأمس تجد اليوم أبناءهم وأحفادهم مندفعـين في تيار المدنية الحاضرة وقد دخـل في بيوتهم من موبقاتهـا وشنائعهـا ما كان منحصراً بالأمس خارج البيـوت ، في الأسواق والأندية ؟ أوليس مما وقع وتحقق أن كثيراً من بيوتات العلم والشرف التي يضرب المثل بها وبأهلها في الزهد والورع قد نشأت فيها اليوم ناشئة قد أفضى بها الضـلال والزيغ إلى الزندقة والالحاد والكفر بالله ورسوله واليـوم الآخر ؟ أو يبقى عند أحد بعد هذه التجارب المتتابعـــة

والمشاهدات المماثلة للعيان من منزع للشك أن مسألة القيادة والزعامة إنما هي مسألة المسائل في الحيـاة الانسانية وأصل أصولها ؟ وأهمية هذه المسألة وخطورة شأنهـا ليست بأمر مستحدث اكتسبتها في هـذا العصر ، وإنما هي مقرونـة ومنوطة بها منذ أقدم الأزمنة ، وناهيك من شاهد بالقول السائر « النـاس على دين ملوكهم » ومن ثم تكرر في الحديث أن علماء الامة و كبراءها هم المسؤولون عن اصلاح شأنها وفساد أمرها ، لما يمتلكون من ناحية الامر ويحملون بأيديهم من لواء الزعامة .

غاية الدين الحقيقية : اقامة نظام الامامة الصالحة الراشدة :

وأرى أن قد تبين لكم مما تقـدم من الشرح والبيان ما لهذه المسألة من الأهمية البالغـة في الدين . والظاهر أن أول ما يطالب به دين الله عبادَه أن يـدخلوا في عبودية الحق كافة مخلصين له الطاعة والانقيـاد حتى لا يبقى في أعناقهم قلادة من قلائد العبودية لغير الله تعالى . ثم يتطلب منهم ألا يكون لحياتهم قانون إلا ما أنزله الله تعالى وجاء به الرسول الامي الكريم ﷺ . ثم إن الاسلام يطالبهم أن ينعدم من الارض الفساد ، وتستأصل شأفـة السيئات والمنكرات الجالبة على العباد غضب الله تعالى وسخطـه .

وهذه الغايات السامية لا يمكن أن يتحقق منها شيء ما دامت قيادة أبناء البشر وتسيير شؤونهم في الأرض بأيدي أئمة الكفر والضلال ، ولا يكون من أمر أتباع الدين الحق وأنصاره إلا أن يستسلموا لأمر هؤلاء وينقادوا لجبروتهم، يذكرون الله قابعين في زواياهم منقطعين عن الدنيا وشؤونها مغتنمين ما يتصدق به هؤلاء الجبابرة عليهم من المسامحات والضمانات . ومن هنا يظهر ما للامامة الصالحة واقامة نظام الحق من أهمية خطيرة تجعلها من غايات الدين وأسسه . والحق أن الانسان لا يمكنه أن يبلغ رضى الله تعالى بأي عمل من أعماله إذا تناسى هذه الفريضة وتقاعس عن القيام بها . ألم ترَوا ما جاء في الكتاب والسنة وتكرر من ذكر الجماعة ولزومها والسمع والطاعة ، حتى أن الانسان ليستوجب القتل إذا خرج من الجماعة ولو قيد شبرة وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم . وهل لذلك من سبب سوى أن غرض الدين الحقيقي وهدفه إنما هو إقامة نظام الحق والامامة الراشدة وتوطيد دعائمه في الارض . وكل ذلك يتوقف تحققه على القوة الجماعية والذي يضعضع القوة الجماعية ويفت في عضدها ، يجني على الاسلام وأهله جناية لا يمكن جبرها وتلافيها بالصلاة ولا بالاقرار بكلمة التوحيد . ثم انظروا

إلى ما كسب « الجهاد » من المنزلة العالية والمكانة الرفيعة في الدين ، حتى أن القرآن ليحكم « بالنفاق » على الذين ينكلون عنه ويثاقلون إلى الأرض منه . ذلك أن « الجهاد » هو السعي المتواصل والكفاح المستمر في سبيل اقامة نظام الحق ، ليس غير . وهذا الجهاد هو الذي يجعله القرآن ميزاناً يوزن به إيمان الرجل وإخلاصه الدين ، وبعبارة أخرى أنه من كان يؤمن بالله ورسوله ، لا يمكنه أن يرضى بتسلط النظام الباطل أو يقعد عن بذل نفسه وماله في سبيل اقامة نظام الحق . فكل من يبدو في أعماله شيء من الضعف والاستكانة في هذا الباب فاعلم أنه مدخول في إيمانه مرتاب في أمره . فكيف ينفعه عمل من أعماله بعد ذلك ؟

والمقام لايتسع للافاضة في هذه المسألة وتفصيل القول فيها . إلا أن الذي بينته آنفاً أراه كافياً لايضاح هذه الحقيقة المهمة ، وهي أن إقامة الامامة الصالحة في أرض الله لها أهمية جوهرية وخطورة بالغة في نظام الاسلام . فكل من يؤمن بالله ورسوله ويدين دين الحق ، لا ينتهي عمله بأن يبذل الجهد المستطاع لافراغ حياته في قالب الاسلام ولا تبرأ ذمته من ذلك فحسب ، بل يلزمه بمقتضى

ذلك الايمان أن يستنفد جميع قواه ومساعيه في انتزاع زمام الامر من أيدي الكافرين والفجرة الظالمين حتى يتسلمه رجال ذوو صلاح ممن يتقون الله ويرجون حسابه ، ويقوم في الارض ذلك النظام الحق المرضيّ عند الله الذي به صلاح أمور الدنيا وقوام شؤونها .

ثم إذا لم يكن من الممكن تحقق هذا المقصد الاسمى إلا بالمساعي الجماعية ، لم يكن بد من أن تكون في الارض جماعة صالحة تؤمن بمبادىء الحق ، وتحافظ عليها ولا تكون لها غاية في الحياة إلا إقامة نظام الحق وإدارة شؤونه بغاية من الاهتمام والعناية . ولعمر الحق إنه ولو لم يكن على وجه الارض إلا رجل واحد مؤمن ، لما جاز له أن يرضى على نفسه بتسلط نظام الباطل ، حينما يجد نفسه وحيداً فاقداً للوسائل اللازمة ، أو أن يحاول التستر وراء الحيل الشرعية كالاقتناع « بأهون البليتين » أو أن يساوم نظام الكفر والفجور السائد في إيمانه ، ويقنع بحياة موزعة بين الكفر وطاعة الله . بل الحق أنه لا يكون إمامة إلا طريق واحد : وهو أن يدعو الناس كافة إلى منهاج الحياة الذي يرضى به الرب تعالى . فان لم يجب لدعوته أحد ، فان قيامه على الصراط المستقيم واستمراره

في دعوة الناس حتى يلقى ربه ، خير له ألف مرة من أن يتنكب الصراط الحق ، ويهتف بثمرات تهش لها وتفرح بها الدنيا المتسكعة في بيداء الضلال والغواية ، أو يأخذ في المشي على طرق جائرة بزعامة الكفار . وإن وجـــد من عباد الله رجالاً يستمعون لقوله ويلبون دعوته ، فعليه أن يؤلف منهم كتلة لا يكون من همها إلا استنفـــاد جميع القوى الجماعية في سبيل تحقيق تلك الغاية التي نحن بصددها.

هذا ما أراه مقتضى الدين الالهي حسب ما رزقني الله من معرفة كتابه العزيز وسنـة رسوله الكريم ﷺ . وهذا ما يتطلبه الكتاب العزيز ، وهذه هي سنة الأنبيـاء والرسل . وإني على مثل اليقين من ذلك ، ولا أراني متزحزحاً عن هذه العقيدة وهذا الرأي ما دام كتاب الله يؤيدني وسنة الرسل الكرام من ورائي تأخذ بيـــدي وتحفزني للعمل والجد.

سنة الله تعالى في باب الامامة في الارض :

وإذا أدركنا غاية مساعينا ومجهوداتنا هذه ، فعلينا أن نعرف وندرك سنة الله تعالى التي لا نبلغ هذه الغـاية إلا بموجبها . إن هذا الكون الذي نعيش فيه إنما أوجده الله تعالى على قانون معين ، وقدر لكل شيء فيه ضابطة من الأمر

لا يمكنه الانحراف عنها . وليس من الممكن أن يتحقق في هذا الكون سعي من المساعي بمجرد الرغبات الطيبة والنيات الخالصة ، ولا أن يؤتي ثمراته ببركات النفوس القدسية ، بل لا بد له من استيفاء تلك الشروط والمقتضيات التي قررها القانون الالهي لتحقيق مثل هذه المساعي . فان كنت زارعاً في حقلك مثلاً ، فمهما تكن قد بلغت من طيب الخلق والسيرة الطـــاهرة مبلغاً عظيماً وأكثرت من التسبيح والتهليل ، فلن تنبت لك حبة ولن تؤتى ثمرتهـا إلا إذا اتبعت وراعيت في مسعاك ذلك القانون الالهي الذي سنه الله تعالى لإيتاء الزرع والحقول ثمراتها . وكذلك من المستحيل أن يبرز إلى الوجود ذلك الانقلاب المنشود في نظام الامامة الذي جعلتموه نصب أعينكم في الحياة وتتطلع إليه نفوسكم بمجرد الأدعية الطيبـة والأماني المعسولة ، بل لا بد لـكم لتحقيقه أن تحيطوا علـماً بذلك القانون الالهي الذي تقوم بموجبه الامامة والسيادة في الأرض وتستوفوا جميع شروطه. وهذا موضوع مهم ذو خطورة ، قد ألممت به غير مرة من قبل في كتاباتي ومحاضراتي ، ولكني أحب أن أتناوله بالشرح والإيضاح في هذه المحاضرة ، لأنه لا تستبين لنـا السبل إلا بالاحاطة بها علماً ومعرفة .

إنكم إذا تأملتم في الانسان وتدبرتم وجوده في الدنيا ، ظهر لكم أن وجهتين متناقضتين تختلفان وتزدوجان معاً .

فالوجهة الاولى أن له وجوداً طبيعياً وحيوانياً تجري عليـــه نفس تلك القوانين التي تجري على سائر الطبيعيات والحيوانات في هذا العالم . وهذا الوجود يتوقف عمله على الادوات والوسائل والاسباب المادية والاحوال الطبيعية التي ينحصر فيها سائر الموجودات الطبيعية والحيوانية . ولا يمكن لهذا الوجود أن يأتي بعمل إلا في ضمن القوانين الطبيعيـة وبواسطة الأدوات والوسائل والاحوال الطبيعية . وجميـع القوى في عالم الاسباب لها تأثير يوافقه أو يخالفه في أعماله.

والوجهة الاخرى التي هي متجلية في الانسان أنه من البشر أي أن له وجوداً خلقياً لا يذعن للطبيعيـــات بل يسيطر عليها ويحكم فيها . حتى إنه ليستخدم جسد الانسان الحيواني والطبيعي كآلة من آلات العمل ويحاول الاستيلاء على أسباب الدنيا الخارجية والتصرف فيها . وأما قواه العاملة ، فإنما هي تلك الصفات الخلقية التي أودعها الانسان من لدن ربه الكريم وإنما تحكمه القوانين الخلقية دون القوانين الطبيعية .

الاخلاق مناط رقي الانسان وانحطاطه:

وهاتان الوجهتان تتعاملان في الانسان مشتركتين ، وعلى الوجه العمومي يتوقف نجاحه وإخفاقه ورقيه وانحطاطه على القوى المادية والخلقية معاً . وهو لا يكاد يستغني عن القوة المادية ولا عن القوة الخلقية . فإذا ما قدر له النجاح وبلغ أوجَ الكمال والرقي ، فبهاتين القوتين . وإذا ما خسر وانحط ، فلأنه فقد هاتين القوتين أو أصبح نصيبه منهما أقل من نصيب غيره . ولكنكم إذا تأملتم المسألة تأملاً وسبرتم غورها تبين لكم أن القوة المنفذة الفاصلة الحقيقية في الحياة هي القوة الخلقيـــة لا المادية . ولا ريب أن الحصول على الوسائل المادية واستخدام الآلات الطبيعية ومســـايرة الأسباب الخارجية للعوامل الداخلية أيضاً من الشروط المستلزمة للنجاح . وما دام الانسان يعيش في هذا العالم الطبيعي ، فإنه لا يمكنه الاستغناء عن هذه الشروط . ولكن الحق ، مع كل ذلك ، أن الذي يرفع الانسان ويضعه والذي له الحظ الأوفر واليد النافذة في سعادة الانسان وشقائه ، إن هي إلا « القوة المعنوية » . ومما لا يخفى عليكم أن الانسان لا يسمى إنساناً لأجل جسمانيتـــه وحيوانيته ، بل لأجل صفاته الخلقية . وليس مما يميز الانسان من غيره

من الموجودات في هذا العالم، أنه يحتاج لجسده إلى محل يحله، أو لأنه يتنفس ويأتي بالنسل والولد ، بـل الميزة التي تفرق بينه وبين سائر الموجودات وتفضله عليها جميعاً ولا تجعله نوعاً مستقلاً عنها فقط بل وخليفة الله في الارض ايضاً ، إنما هي احتيازه للصلاحية الخلقية والتبعة المعنـوية وتفرُّده بهما . فإذا كانت الاخلاق هي جوهر الانسانية ومـلاك أمرها ، فلا بد من الاقرار بأن الأخلاق لها القول الفصل في صلاح الحياة الانسانية وفسادها . وأن القوانين الخلقية هي التي تسيطر على رقي الانسان وانحطاطه .

فإذا استعرضنا الاخلاق بعد إدراك هذه الحقيقـــة ، وجدناها منقسمة إلى شعبتين مهمتـين : الأخلاق الانسانية الاساسية والأخلاق الاسلامية .

الاخلاق الانسانية الاساسية :

والمراد من الأخلاق الانسانية الأساسية تلك الصفات التي يقوم عليها أساس وجود الانسان الخلقي . وهي تشتمل على سائر الصفات التي لابد منها لفلاح الانسان ونجـاحه في هذه الدنيا . سواء أكان عمله وكفاحه لغاية صحيحة أو غير صحيحة . وسواء في بابها أيؤمن صاحبها بالله واليوم الآخر والوحي والرسالة أم لا ؟ وهل هو متحلٍّ بالطهارة النفسية

والنية الخالصة والعمل الصالح أم لا ؟ وهل كان سعيه وجهاده وراء غاية طاهرة ومقصد نزيه أم وراء غاية دنيئة وغرض عاجل ؟ فكل من تحلى بهذه الاخلاق واستوعبها في نفسه استيعاباً ، فلا بد أن يرى ثمرات جهوده يانعة عما قريب ويجيء نجاحه في هذه الدنيا كفلق الصبح ، فيبز ويسبق الذين لايتحلون بهذه الأخلاق ، أو كان حظهم منها أقل وأنقص من حظه . وذلك بصرف النظر هل كان صدره مستضيئاً بنور الايمان أم لا ؟ وهل كانت حياته طيبة أم غير طيبة ؟ وهل يبتغي من وراء سعيه الخير أم الشر ؟ إن الانسان — مؤمناً كان أو كافراً ، صالحاً كان أو طالحاً — لايمكن أن ينجح في هذا العالم ويكون في عداد الفائزين ، إلا إذا كانت فيه قوة الارادة والمضاء في الأمر والعزم والاقدام والصبر والثبات والاناة ورباطة الجأش وتحمل الشدائد والهمة والشجاعة والبسالة والنشاط والشدة والبأس والولوع بالغاية والاستعداد للتضحية بكل شيء في سبيل تحقيقها ، والحزم والحيطة وإدراك العواقب والقدرة على العمل المنظم والشعور بالواجب والاحساس بالمسؤولية والقدرة على تقدير المواقف المختلفة ، والقدرة على صوغه وإفراغه في قوالب مناسبة حسب الظروف المتبدلة ، والقدرة

على تدبير الشؤون وفق تلك الاحوال والظروف ، وكان ملاكا لعواطفه ورغباته ونزعاته النفسية ، وكذلك كان قادراً على استمالة اهواء الناس والاخذ بمجامع قلوبهم وتحبيب نفسه اليهم واستخدامهم في مايحتاج اليه .

ثم لابد له من أن يكون متجلياً ولو بلمع من تلك الشمائل الكريمة التي هي ملاك الآدمية وقوام أمرها في نفس الأمر والتي تضمن للانسان الوقار والثقة في هذه الدنيا كالاباء والسخاء والرأفة والمواساة وسعةالقلب والنظر والصدق والامانة والنزاهة والوفاء بالعهد وكمال الرزانة والاعتدال والتهذيب والطهارة والنظافة وضبط النفس والذهن .

هذه هي الصفات التي إذا حازها واستوعبها معظم افراد أمة من الامم أو جماعة من الجماعات ، فكأنها عندها ثروة الانسانية ورأس مالها . فان هـذه الثروة هي التي تتكون على أثرها قوة جماعية قوية فعالة ، الا ان هذه الـــثروة لايمكن أن ترتكز وتتجمع بنفسنا وتنقلب إلى قوة جماعية عظيمة محكمة فعالة في الامر الواقع ، الا إذا ساعدتها على أمرها جملة من الصفات الخلقية الاخرى ، وذلك مثل أن يكون جميع الأفراد أو معظمهم متفقين على غاية لهم مشتركة بعينها وكانت أحب اليهم من أغراضهم الشخصية بل من نفوسهم

وأموالهم وأولادهم ، وكانوا متمتعين بالتحاب والمواسـاة في مابينهم ، وكانوا متعاونين على الخير متساندين على الـبر ، وكانوا ، على الأقل ، ممن يضحون بأثرتهم وذاتيتهم إلى حد لا بد منه لسعي جماعي منظم ، ثم يميزون القائد الراشد من القائد المضل ، ولا يلقون أعباء قيادتهم وسيادتهم الا على كواهل رجال يصلحون لهـا ، وكان قوادهم وزعماؤهم متحلين بصفات الاخلاص وحسن التدبير وما اليها من الصفات الاخرى المستلزمة للقيادة ، وكانت الامة أو الجماعة انفسهم يعرفون طاعـة قوادهم ويثقون بهم ويتطلمون إلى جعـل جميع وسائلهم ومواهبهم الفكرية والجسمانية والمادية تحـــت تصرفهم ، وكان فيهم من الرأي العام الحي الفعال مالا يسمح بأن ينشأ فيهم شيء يمس بكيانهم ويهدد فلاحهم الجماعي .

فاذا كانت أمامك غاية صحيحة منزهة ، فانما تحتاج إلى سلاح من الحديد لا من الخشب الذي اكلته الارضة ولا قبل له بتحمل شيء من الضرب الخفيف . وهذا ما أشار اليه نبينا الكريم ﷺ بقوله : (خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام)[1] أي أن الذي كان فيهم الجوهر الثمين في

---

(١) كما ورد في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة بطرق متعددة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : تجدون الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا . (باب المناقب) .

الجاهلية ، إنما هم الذين نفعوا الاسلام واثبتوا انهم اكفاء الاضطلاع بكل أمر من أموره . وغاية ما حدث فيهم من الفرق أنه كانت مواهبهم وقواهم تستعمل في طرق الشر والمعصية ، فجاء الاسلام ووجهها إلى طريق الرشد والخير . والحاصل أن نفايات القوم وحثالاتهم ما كان ليرجى منهم النفع لا في الاسلام ولا في الجاهلية . ان الظفر العظيم والفتح المبين ـ الذي ناله النبي ﷺ في العرب والذي لم يمض عليه الا مدة يسيرة ، حتى أحس جزء عظيم من المعمورة من نهر السند إلى بحر الاطلسي بنفوذه وآثاره البالغة ـ أو كان لكل ذلك سبب غير أنه ﷺ ظفر في جزيرة العرب بأحسن ذخيرة من الكفاءة الانسانية والاستعداد البشري ممن كانوا يملكون قوة مسخرة من السيرة الفردية والطباع المستقيمة . أرأيتك انه لو كان ظفر ﷺ من اصحابه برجال ساقطي الهمة متزعزعي الارادة ممن لايوثق بهم ولا يعول عليهم فهل كان يحصل منهم على نتائج مثل تلك النتائج الباهرة التي حصل عليها .

الاخلاق الاسلامية :

ولنتناول الآن الشعبة الثانية للاخلاق ، وهي التي أعبر

عنها بالاخلاق الاسلامية ، وما هي بشيء مستقل عن الاخلاق الانسانية الاساسية بل هي متممة لها ومكملة اياها . فأول عمل يأتي به الاسلام أنه يزود الاخلاق الإنسانية بمركز صحيح وقطب مستقيم إذا اقترنت به حوّلها إلى الخير والرشد برمتها . وليست هذه الأخلاق في صورتها الأولى إلا قوة مجردة يمكن استخدامها في الخير والشر معاً ، وإنما مثلها كمثل السيف الصارم هو آلة للظلم والإرهاق والجور إن كان في يد اللص السارق ، واداة للخير والحق ان كان في يد المجاهد في سبيل الله . فلا يحكم على هذه الأخلاق بالخير والصلاح لمجرد وجودها في فرد معين أو جماعة بعينها ، بل يتوقف خيرها وصلاحها على كونها مستخدمة في السبيل الاقوم ، فالاسلام يعنى بتوجيه هذه الأخلاق المحضة إلى طريق الخير والحق . ومن المقتضيات المستلزمة لدعوة الاسلام إلى التوحيد أن لاتكون الغاية الوحيدة والمقصد الجوهري من وراء جهود الانسان ومساعيه الا ابتغاء وجه الرب تعالى [1] وان يحدد أفق فكرته ونطاق عمله بحدود عينها له ربه

---

(١) كما أشير إلى هذا المعنى بـ (و إليك نسعى ونحفد) في الدعاء المأثور المعروف .

الجليل[1] . فمن النتائج اللازمة لهذا الاصلاح الاساسي أن جميع الأخلاق الأساسية التي قد ذكرتها لكم آنفاً تتجه إلى الطريق المستقيم ، وأن القوى التي تتولد بوجود هذه الاخلاق لا تستعمل ولا تنفذ إلا في سبيل اعلاء كلمة الحق الناصع بالطرق المباحة ، بدلا من أن تستعمل في سبيل النفس أو الأسرة أو الأمة او الوطن بطرق جائزة وغير جائزة . وهذا هو الذي ينهض بهذه الأخلاق ـ على الوجه الايجابي ـ من مرتبة القوة المجردة ويحولها خيراً شاملاً ورحمة للعالمين .

والمهمة الثانية التي يأتي ويعني بها الاسلام في باب الأخلاق ان يؤصل الاخلاق الأساسية الانسانية ويوطد أركانها في جانب، ويوسع في تطبيقها على مظاهر الحياة الانسانية إلى حد عظيم في جانب آخر . وخذ لذلك الصبر مثلاً . فمهما بلغ الرجل الغاية في الصبر واستولى على الأمد في حلبته ، فلا بد له أن يقف تحمله وينفد ثباته عند حد معلوم إذا كان لأغراض عاجلة ليستمد قوته ويتغذى من الجذور الفكرية للشرك وعبودية المادية . أما الصبر الذي يستجلب قوته من جذور التوحيد

(١) وإلى هذا المعنى اشير بـ (إياك نعبد والك نصلي ونسجد) في الدعاء نفسه .

والذي لا يبتغى من ورائه الا وجه الله تعالى ، فهو كـنز مكنون لاتصل اليه يد السارق ، وجيش عرمرم من الثبات والبسالة لايقدر أن يقف في وجهه سائر الشدائد والاهوال الممكنة في هذه الدنيا . ثم إن الصبر لغير المسلمين من نوع محدود ضيق جداً ، فبيـنما تراه خائضاً غمار المعركة ثابتاً أمام هجمات الرشاشات والقنابل ثبوت الجبـال الراسيات ، إذا به تراه مستسلماً لشهوات النفس الجامحـة لايكاد يملك نفسه وعواطفه أمام هزة يســيرة من هزات الغريزة الثائرة . أما الاسلام ، فيطبق الصبر ويوسع في تطبيقـه على سائر الحياة الانسانية ، ولا يجعله سداً منيعاً ومعقلاً حصيناً دون أخطار وأهـوال محدودة فقط ، بل دون كل ما يحـاول تنكيب الانسان عن الصراط المستقيم من المطامع والاخطار والوساوس والرغبات . والحقيقة أن الاسلام يطبع حياة المؤمن بطابع من الصبر والاناة الـتي من مبادئها الاساسية أن يظل قائماً على طراز صحيح مستقيم من الفكـر والعمل طول حياته مهما اتي في ذلـك من الأخطار والأهوال والشدائد ، ولم يتراء له بارقة أمل من النتائج النافعة في هذه الحياة الدنيا ، وأن لايختار طريقاً معوجاً من الفكر والعمل بأية حال ، وإن لمحـت له جنة

وارفة من الأحلام العذاب ، والأماني المعسولة والمنافع المأمولة . فهذا الابتعاد عن الشر والمواظبة على طريق الخير والرشد طول الحياة الدنيا احتساباً لنتائج الآخرة وعواقبها اليقينية ، هو الصبر الاسلامي . وكذلك يكون ذلك الصبر بطبيعة الحال في تلك الاشكال التي ترى في حياة الكفار على نطاق محدود . ولك أن تقيس عليه سائر الاخلاق الأساسية التي تشاهدها ضعيفة محدودة في حياة الكفار لما يعوزها من أساس فكري صحيح . فالاسلام يتناول هذه الأخلاق كلها ويسعفها بأساس صحيح محكم من عنده ويوسع دائرة نفوذها .

والمهمة الثالثة التي يقوم بها الاسلام أنه ينظر إلى الاخلاق الاساسية العامة كأنها الطبقة الاولى من البناء ، فيشيد عليها الطبقة الثانية من الاخلاق الفاضلة ، حتى ليرتقي بها الانسان إلى أعلى درجات الشرف والكمال . وهو يطهر قلبه من أدران الأثرة والأنانية والظلم والوقاحة والخلاعة والاستهتار ، ويلقي في روعه بذرة تقوى الله وخشيته تعالى ، والورع واتباع الحق ، ويذكي فيه قبس الشعور بالتبعات ، ويروضه على التخلق بضبط النفس ، ويجعله جواداً كريماً ودوداً

مواسياً ناصحاً أميناً مخلصاً عادلاً صادقاً لخلائق الله جميعاً في كل حال ، ويربيه وينشئه على سيرة طاهرة سامية لا يرجى منها إلا الخير ولا يخشى منها الشر أبداً ، ثم ان الاسلام لا يقتصر على أن يجعل الانسان صالحاً راشداً في ذات نفسه ، بل يجعله فوق ذلك « مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر » كما ورد في الحديث النبوي (١) . أي أنه يفوض اليه وينيط بــــه — على الوجه الايجابي — مهمة تعميم الخير واستئصال شأفة الشر في أرض الله . وفي طبيعة تلك الاخلاق والسيرة من الحسن والجذب وقوة التسخير البالغة ما إن تحلت به جماعة منظمة وسعت سعيها في القيام بما القى على كاهلها الاسلام من مهمة الدعوة اليه ، فلا قبل بمواجهتها ومقــاومتها لقوة من قوى الدنيا كلها .

جماع القول في سنة الله في باب الامامة :

هذا ، وأريد الآن أن أبين لكم بكلمات موجزة تلك السنة التي سنها الله تعالى في باب الامامة والتي مازالت نافذة

---

(١) عن سهل بن سعد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: طوبى لعبد جعله الله تعالى مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر. وويل لعبد جعله الله مفتاحا للشر مغلاقا للخير .(مشكاة المصابيــح ، كتاب الاداب، باب الرقاق)

من الازل وستبقى جارية مادام النوع البشري حياً قائماً على فطرته في هذه المعمورة ، فهاكم إياها :

١ ـ إذا لم تكن في الارض طائفة منظمة متصفة بكل من الاخلاق الاساسية والاخلاق الاسلامية وهي تستخدم ـ مع ذلك ـ الوسائل والاسباب المادية ، فلا بد أن يسلم زمام القيادة والسيادة في العالم إلى طائفة تكون أكثر جمعاً واحتيازاً للاخلاق الاساسية الانسانية والاسباب المادية من غيرها ، وذلك بأن قد جرت مشيئة الله أن يبقى نظام هذا العالم جارياً مطرداً على كل حال ، فمن ثم يفوض أمر ادارته وتسيير دفة شؤونه إلى أعظم الطوائف المعاصرة قدرة وأكثرها كفاءة .

أما إن كانت في الارض فئة منظمة تمتاز من بين سائر الفئات الموجودة وتفضلها جميعاً في الاخلاق الاسلامية والاخلاق الانسانية العامة معاً ، ثم لا تقصر في الوقت نفسه في استخدام الاسباب المادية حق استخدامها ، فمن المستحيل عندئذ أن تتسلم أزمة قيادة الارض وتتمتع بسيادتها فئة أخرى بازائها ، فان ذلك مما يناقض فطرة الكون ويناقض سنة الله التي سنها في الشؤون البشرية ، ويناقض مواعيده

التي وعد بها المؤمنين الصالحين من عباده في غير موضع من كتابه العزيز . والله تعالى لايحب الفساد في أرضه ، وأي فساد أشنع وأبشع من أن ينقاد زمام أمور الارض لفئة تعيث فيها وتملأها ظلماً وجوراً ، مع أن فيها فئة صالحة قادرة على تسيير دفة حكمها طبقاً لمشيئة الرب ومرضاته تعالى . ومما ينبغي أن لايغيب عن البال أن نظام الاستخلاف في الارض لايمكن أن يتغير ويتبدل بمجرد وجود فرد صالح أو أفراد صالحين مشتتين في الدنيا ولو كانوا في ذات أنفسهم من أولياء الله تعالى بل ومن أنبيائه ورسله . إن الله تعالى لم يقطع ما قطع من المواعيد لأفراد متفرقين مشتتين ، وإنما قطعها لجماعة منسقة متمتعة بحسن الادارة والنظام قد أثبتت نفسها ـ فعلاً ـ أمة وسطاً ، أو خير أمة في الارض .

وكذلك ينبغي أن يكون منكم على ذكر بهذا الصدد ، أن نظام الامامة لن يحدث فيه أي تغير ولا انقلاب بمجرد وجود فئة مثل هذه في الارض ، بحيث أنها إذا تألفت وأخذت في الوجود مكانها ، تنزلت من السماء الملائكة ونحّت الفاسقين الفاجرين عن كرسي السيطرة والسلطان وبوؤوه هؤلاء الصالحين المؤمنين . بل مما لا مندوحة عنه لهذه الفئة

المؤلفة أن تستمر في المكافحة والمناضلة لقوى الكفر والفسق على كل خطوة من كل حلبة من حلبات الحياة الدنيا وتثبت ما في نفسها من حب الحق وكفاءة للاضطلاع بأعباء إمامة الأرض ببذل التضحيات والمساعي في سبيل إقامة الحق . وذلك شرط لم يستثن منه حتى الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، فانى لأحد اليوم أن يتمنى على ربه أن يستثنيه منه .

الفرق بين قوة الأخلاق الاساسية والاخلاق الاسلامية :

والذي قد أرشدتني إليه دراستي للقرآن الكريم والتاريخ والامعان فيهما أن لله سنة مطردة في باب التوازن بين القوتين المادية والخلقية ، وهي أنه إذا كانت القوة الخلقية بتمامها مرتكزة في الاخلاق الانسانية الأساسية ، فهناك للوسائل المادية أهمية عظيمة ، حتى إنه من الممكن إذن أن يستتب الأمر في الأرض لفئة لها النصيب الأوفر من الوسائل المادية ولو لم يكن عندها إلا قليل من القوة الخلقية ، على حين أن الفئات الاخرى التي قد تفوقها في القوة الخلقية تكون مغلوبة على أمرها لقلة الوسائل المادية فحسب . أما إذا كانت القوة الخلقية مدججة بأسلحة من الاخلاق الاساسية والاسلامية معاً ، فهناك لا بد أن تتغلب الاخلاق

— على قلة الوسائل المادية عندها — على سائر القوى التي لم تقم ولم تبرز إلى الميدان إلا مستندة إلى الاخلاق الاساسية والاسباب المادية فقط . ولك أن تدرك هـذه الحقيقة عن هذا الفرق النسبي بين القوتين بأنه إذا كانت الاخـلاق الاساسية تحتاج إلى مائةدرجة من الوسائل المادية ، فالاخلاق الاسلامية والاساسية متحدة لا تحتاج في هذا الموقف نفسه إلا إلى ٢٥ درجة من تلك الوسائل المادية . والذي يبقى من الخمس والسبعين درجـة من قوتهـا المادية ، تستكملها الاخلاق الاسلامية بدافعها النفسي الكامن في طبيعتها . بل الذي تعلمنا تجارب العهد النبوي أنه إذا كانت الاخـلاق الاسلامية على ما كانت عليه أخلاق النبي ﷺ وأصحابـه الكرام — رضوان الله عليهم أجمعين — فان خمس درجات من الوسائل المادية تقوم مقام مائة درجة منها . وإلى هذه الحقيقة قد أشـار القرآن الكريم بقوله : « إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ . »(١)

والذي ذكرت لك الآن ، لا أقوله عن حسن عقيدة في شخص النبي ﷺ وأصحابه فحسب ، ولا يذهبن بك

(١) « الأنفال ٦٥ » .

الظن إلى أني أقص عليك شيئاً من قبيل المعجزات والكرامات، لا ، لا ، بل هي حقيقة فطرية ثابتة تحدث في هذا العالم – عالم الأسباب والعلل – وفق قانون العلة والمعلول ، ويمكن تحققها كلما وجدت علتها . وقبل أن أتقدم في البحث يجمل لي أن أشرح لكم على وجه الايجاز كيف تقوم الاخلاق الاسلامية – وهي متضمنة للأخلاق الاساسية بطبيعة الحال – مقام ٧٥ بل ٩٥ درجة من القوة المادية .

لكم أن تدركوا هذه الحقيقة بانعام النظر في الصورة العالمية الحاضرة اليوم ، فان الفساد العظيم الذي كانت قد اشتعلت وتأججت نيرانه قبل ست سنوات ، قد انتهى أخيراً بانهزام ألمانيا ، وتكاد رحى الحرب تدور على اليابان بالهزيمة أيضاً (١) . فالذي لامجال فيه للريب أن الفريقين متساويان في الاخلاق الاساسية تقريباً ، بل الذي يظهر من بعض الوجوه أن ألمانيا واليابان أتتا بما يدل على تفوقهما في القوة الخلقية الاساسية بازاء الحلفاء . وكذلك إذا وازنا بين الفريقين في العلوم الطبيعية وطرق استخدامها ،

(١) كتبت هذه الرسالة في أعقاب الحرب العالمية الثانية قبيل استسلام اليابان .

وجدنا كلا منهما يناهض الآخر ويماثله ، بل الذي لا يخفى على أحد أن ألمانيا ـ إن لم نقـل اليابان أيضاً ـ كان لها قصب السبق على سائر الدول العالمية في هـذا الباب . غير أن هناك شيئاً واحداً فاق فيه أحـد الفريقين على الآخر فوقاً عظيماً ، ألا وهو ملاءمة الوسائل المادية وموافقتها . فلم ينتصر المنتصر إلا لما كان لديه من الرجال والعدة والعتاد والوسائل المادية الأخرى أضعاف ما كان عند قرينـــه . وأضف الى ذلك موقعه الجغرافي المنيـع الذي لم يتيسر لقرينه ، وكذلك ما أنعمت به عليه الأسباب التاريخية من ظروف وأحوال لم تكن لقرينه . فلا يكاد يكون من المتوقع اليوم أن تقوم أمة قليلة العدد والعتاد في وجه أمة قوية عندها وفرة عظيمة من الوسائل والاسباب المادية ، ولو كان أسبق منها في التحلي بالأخلاق الاساسية وأعرف منها باستخدام العلوم الطبيعية وذلك أن كل أمة تحمل نهضتها على قواعد من الأخلاق الأساسية والعلوم الطبيعية لاتخلو حالها من أمرين : إما أن تكون غارقة في قوميتها ، طامحة ببصرها إلى تسخير العالم واحتجانه لمصلحتهـا ، وإما أن تكون حاملة بيدهـا لواء بعض مبادىء عالمية داعية إليها سائر أمم الارض .

في الصورة الأولى لا يمكن أن تنال مبتغاها وتبلغ مرادها إلا إذا كانت أوفر الأمم وأكثرها حظـــاً من الوسائل والقوى المادية . وذلك أن سائر الأمم التي تكون عرضة لمطامحها وجشعها الاستعماري ، لابد أن تقوم في وجهها وتستميت في مقاومتها وتتقد بنار الغضب والنفور في مطاردتها . أما الصورة الثانية ، فلا شك أنه من الممكن فيها أن تسخر فكرتها ونظريتها عقول الأمم وأذهـــانها فتستسلم لدعوتها الانقلابية ، ولا تحتاج لنيل مبتغاها إلا إلى قليل من القوة المادية . ولكن الذي ينبغي أن لا يغيب عن الألباب أن القلوب لا تذعن لهـا بمجرد المبادىء المـذبة والقواعد المعسولة بل لابـد لمن يرغب في تسخيرها أن يثبت أنه غـذي بلبان النصح والصدق والأمانـة والطهارة ورحابة الصدر والسخاء والمواساة والشرف والعدل — أن يثبت أنه قد ترعرع في حضن هـــذه الأخلاق الفاضلة الحقيقية التي تتحقق ناصعة غير مشوبـة بأدران الأغراض الدنيئـة في الحرب والسلم والانتصار والانهزام والصداقـة والعداوة وما إليها من الأحوال الطارئة والمحن التي تعتور الحيـاة الانسانية ، هـذه الاخلاق الفـاضلة التي هي أسمى وأسنى من الأخلاق الأساسية العامة . ومن ثم تشاهدون

اليوم أن كل أمة تقوم نهضتها على دعائم الاخلاق الاساسية والقوى المادية المجردة ، لابد أن تؤول جهودها ومساعيها كلها إلى الاغراض والأثرة الفردية أو الطائفية أو القومية الخالصة ، سواء أكانت قد جهرت بخطتها القومية أو أخفتها وراء ستار دعوة عالمية تحمل لواءها وتدعي الذود عن مبادئها ، كما تشاهد اليوم بأم عينك في السياسة الخارجية للدول الاميركية والانكليزية والروسية ، فالظاهر في مثل هذا الكفاح والصراع أن تقوم كل أمة في وجه أمة أخرى وتحول بينها وبين تحقيق آمالها ومطامحها وتبذل بذل المستميت كل ماأوتيت من القوى المعنوية والمادية في نضالها وكفاحها ، وتأبى أن تسمح لها بأن تشق الطريق لرقيها من بين أرضها ، اللهم إلا إذا غلبت عليها بوسائلها المادية الموفورة وطحنتها طحنا .

هذا ، وتمثلوا في مثل هذه الحال أن هناك فئة ، ولو كان منشؤها في أول الامر في أمة من الامم ، إلا أنها قد ظهرت بمظهر الجماعة ، والحزب ، لا بمظهر الطائفة في هذه الدنيا ، وهي منزهة من الاغراض الشخصية الطبقية أو القومية وهي لاتبتغي من وراء جميع ماتبذل من المساعي

والجهود إلا أن تقيم في هـذه الدنيا نظام الحياة الانسانية على أساس مجموعة من الأصول والمبادىء التي تؤمن بها ، ولا ترى سعادة النوع البشري وهنـاءته مضمونـة إلا في اتباعها والسير عليها ، وكذلك لايشوب المجتمع الذي تؤلفه هــــذه الفئة أي شائبة من شوائب الفروق والامتيازات القومية أو الاقليمية أو الطبقية أو النسلية ، ومن الممكن أن ينضم اليه وينخرط في سلكه جميع أبناء البشر بحقوق متساوية ومنزلة متماثلة ، وأن ينـال فيه منصب القيـادة والامامة أي فرد أو مجموعـة من الافراد ، فاق سائر الافراد في اتباع هذه المبادىء والاصول والتحلي بمقتضياتها ، بقطع النظر عن قوميته النسلية أو الاقليمية . بل قـد يمكن في هذا المجتمع ان المغلوب على أمره اذا آمن بهـذه المبادىء وأثبت نفسه أصلح وأكفأ للاضطلاع بالامور من الذي فتح بلاده وانتصر عليه ، يأتي هذا الفاتح ويسلم اليه جميع ثمرات مساعيه ويرضى به إماماً لنفسه يقتدي به ويأتمر بأوامره . فاذا قامت هذه الفئة ودعت الناس بدعوتهـا ، قام في وجهها الذين لا يرضيهم انتشار مبادئها في الأرض وألقوا في سبيل سيرها ورقيها العراقيل والعقبات . فوقتئذ يبتدىء

الصراع والمنازعة بين القوتين . فكلما تزاد هذه المناضلة شدة واشتبا كاً تزداد هذه الفئة صبراً ومراساً وتأتي بازاء عدوها بأشرف الاخلاق وأفضلها وتثبت بسلوكها وخطتها العملية أنهـا لا تبتغي من وراء جهودها إلا سعادة جميع خلق الله . وهي لا تحارب ذوات أعدائها ولا قوميتهم وإنما تحارب ضلالتهم ومناهجهم الزائفة التي لو تركوهـا لأصبحوا اخواناً لهم متحابين فيما بينهم . وهي لا تطمـع في أموالهم وثروتهم ، ولا تريد أن تضع يدها على تجارتهم وصناعتهم ، وإنما تحرص كل الحرص على هدايتهم وتطمع كل الطمع في سعادتهم الخلقية والروحانية التي إذا نالوها وظفروا بهـا ، فهم أحق بثروتهم وبكل ما لديهم . وهي لا تستخدم الكذب والخديعة والمكر السيء ، ولا في أحرج المواقع وأشدها ، وهي تدفع السيئة بالحسنـة ولا ترد على المؤامرات الدنيئـة إلا بالحيل والتدابير الشريفـــة ، ولا تكاد تحملها سورة الانتقام والثأر على الجور والاعتداء ، وهي لا تقعد عن اتباع ما قامت لدعوة الناس إليه من المبادىء حتى في أشد مواقف الحرب وأكثرها خطورة ، ولا تنفك قائمة في كل الأحوال على الصدق والوفاء بالعهد وحسن المعاملة والاستمساك

بالعدل ، وتثبت نفسها مستوفية لشروط الامانة والنزاهـة العليا التي كانت عرضتها على الدنيا في أول أمرها مقياساً لها . وكلما التقى في ميدان الحرب الفريقان واصطفا وجهاً لوجه : الزناة والمدمنون للخمر والمقامرون والجفاة الغلاظ من جنود الأعداء في جانب ، والاطهار والاتقياء والعابدون الصالحون والمجاهدون الرحماء من رجال هذه الفئة في جانب، تظهر مروءة كل رجل من هؤلاء الاطهار وانسانيتهم العالية ويبرز للعيان سموها وتفوقها على توحشهم وهمجيتهم ، وحينما يتسنى لاولئك أن يأتوا إلى هؤلاء جرحى أو أسرى بعد الحرب ، تأخـذ أرواحهم الخبيثـة المدنسة بأدناس الكفر والضلال في التطهر من أدرانها شيئاً فشيئاً لما يرون في هذا المجتمع من الخير والشرف والعلو والطهارة في الاخـلاق . وأما إذا أسر أفراد هذه الفئة ووقعوا في أيدي عدوهم ، يزداد صقلاً وانجلاء في هذا المجتمع المظلم ما في أنفسهم من جوهر الانسانية . وإذا كتب لهم الاستيلاء على قطر من أقطار الأرض ، يلقى منهم أهله العفو مكان الانتقام ، والمرحمة والنصفة مكان الظلم والعـدوان ، والمواساة مكان المجافاة ، والحلم والتواضع مكان الغطرسة والكبرياء ، والدعاء مكان السباب ، والدعوة إلى المبـادىء الحق مكان الدعايات

الكاذبة الملفقة ، ولا يكادون يقضون عجبهم حينما يشاهدون أن الفاتحين الامناء لا يطلبون منهم النساء ، ولا يبحثون عن أموالهم المخبوءة ، ولا يتجسسون لاكتشاف أسرار صناعتهم ، ولا يتفكرون في القضاء على قوتهم الاقتصادية ، ولا يستخفون بكرامتهم القومية ولا يمسونها بسوء ، بل الذي يهمهم قبل كل شيء أن لا تنتهك حرمة لأحد من أهالي البلاد التي قد تولوا أمرها ، ولا يصاب أحد منهم في ماله ، ولا يحرم حقاً من حقوقه المشروعة ، ولا تنشأ فيهم رذيلة من الرذائل الخلقية ولا تبقى فيهم المظلمة الاجتماعية في أي شكل من الأشكال ، وبالعكس من ذلك فكلما احتجز الفريق المخالف بقعة من بقاع الأرض ، ارتفعت شكوى سكانها من مظالمه واعتداءاته ، ونادت بالويل والثبور . ولك أن تتمثل بنفسك مبلغ ما يحدث في مثل هذه الحرب من الفرق العظيم بالنسبة إلى الحروب والمعارك القومية ، ولا بد أن تهزم الانسانية السامية في مثل هذه الحرب على قلة وسائلها وأسبابها المادية همجية أعدائها المحصنة بالحديد والمدججة بآلات الدمار والهلاك ، وأن تغلب أسلحة الأخلاق الفاضلة المدافع والقنابل ، وأن ينقلب الأعداء أصدقاء في عين الوقت الذي يكون وطيس الحرب فيه حامياً مضرماً وأن تهزم

القلوب وتنفتح قبل الأجساد ، وأن تدخل الاقطار تلو الاقطار في حوزة ملكها بدون أدنى مشاكسة أو محاربة ، وأن هذه الفئة الصالحة عندما تقوم بأمرها وتشمر عن ساق الجد في تحقيق مهمتها بعدد قليل من رجالها ، ونزر يسير من عتادها ، فلن تزال تحرز وتستكمل شيئاً فشيئاً كل ما تحتاج إليه من القواد والجنود والحذاق والمهرة في فنون الحرب ، وكذلك الأسلحة والذخائر وأدوات الحرب من معسكرات الأعداء وثكناتهم أنفسهم .

وإني لا أقول كل ذلك بناءً على مجرد الحدس والتخمين ، بل إنكم إذا أجلتم النظر في عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين ، تجلى لكم بدون أدنى شك ولا ارتياب أن هذا كله قد وقع وشهد عليه التاريخ من قبل ويمكن أن يتحقق اليوم بشرط أن ينبري لهذه التجربة رجال فيهم الجراءة والحمية والحماسة الكافية .

لعلكم قد أدركتم مما تقدم من البيان أن منشأ القوة ومنبعها الأصلي هو القوة الخلقية . وإن كان في الأرض اليوم فئة منظمة متصفة بالاخلاق الاسلامية والاخلاق الاساسية كلتيهما ، فمن المستحيل عقلاً والمتعذر طبعاً أن تتمتع بسيادة الارض وتتمسك بأزمة أمورها فئة غير هذه الفئة . وكذلك

أراك قد فطنت لما هو السبب الجوهري لتأخر المسلمين وانحطاطهم في العالم اليوم . ومن الظاهر البين أنه لا يمكن أن تبقى متمتعة بسيادة الأرض وزعامتها وقيادتها أمة لا تستخدم الوسائل المادية ولا الوسائل الأساسية ، ولا تتزين بالأخلاق الأساسية ، ولا توجد فيها بصفة جماعية الاخلاق الاسلامية . ومن مقتضى السنة الالهية التي لا تتبدل ولا تتغير أن تؤثر فيهم أمم كافرة قد اثبتت ولا تزال تثبت أنفسها أكثر كفاءة منها في الأخلاق الاساسية واستخدام الوسائل المادية لادارة شؤون الارض وتسيير دفتها وإن كانت مجردة عن الاخلاق الاسلامية . فان كان في نفوس المسلمين شيء من الملل والضجر من هذه الحال فليلوموا أنفسهم لا سنة الله ، وليكن من نتيجة ذلك أن يفكروا ويجتهدوا في تدارك ذلك النقص الذي قد أخرهم ونحاهم عن قيادة الأرض وجعلهم مطية ذلولاً لكل قاهر مستبد .

أربع مراتب للأخلاق الإسلامية

وهذا الذي نعبر عنه بالاخلاق الاسلامية ، يشتمل بموجب القرآن والسنة على أربع مراتب هي : الايمان والاسلام والتقوى والاحسان . وهي كلها مرتبة ترتيباً فطرياً بحيث أن كل تالية منها تتولد من سابقتها ولا تؤسس إلا عليها . فما دامت الطبقة الاولى منها غير محكمة متقنة ، لا يكاد يخطر بالبال أن تبنى عليها الطبقة الثانية . فالايمان بمنزلة الأساس في هذا البناء ، وهوالذي تقوم عليه طبقة الاسلام، ثم تشيد على طبقة الاسلام طبقةالتقوى فطبقة الاحسان . والذي يبدو من ذلك أنه ما دام الايمان — وهو أساس الاسلام والتقوى والاحسان ، كما عرفت — منعدماً ، لا يمكن وجود الاسلام أو التقوى أو الاحسان بوجه من الوجوه . وكذلك ما دام الايمان ضعيفاً متزعزعاً ، يستحيل أن يشيد عليه أي بناء من الأبنية ، وإن شيد فلا يخلو من أن يكون ضعيفاً متزعزع الاركان متداعي القواعد والاسس . وكذلك إذا كان الإيمان ضيقاً محدوداً فلا بد للاسلام والتقوى والإحسان جميعاً أن تحد بحدوده ولا تعدوه أبداً . فما دام الايمان غير صحيح محكم واسع الاكناف

والجوانب ، لا يكاد يخطر ببال رجل له شيء من الالمام بالدين أن يشيد عليه بناء الاسلام أو التقوى ، أو الاحسان، وكذلك مما لا بد منه أن يهتم باصلاح الاسلام واتقانه وتوسيعه قبل التقوى ، وبإصلاح التقوى وإتقانه وتوسيعه قبل الإحسان . ولكن كثيراً ما نشاهد الناس اليوم قد نسوا هذا الترتيب الفطري ولا يأبهون له فيشرعون في تشييد صرح التقوى والإحسان قبل أن يوطدوا لها أسس الايمان والاسلام . وأشد من ذلك مبعثاً للأسى والاسف أن الناس قد رسخ في أذهانهم تصور محدود الايمان والاسلام، فيزعمون أنهم يستكملون تقواهم ويبلغون أعلى درجاته إذا أفرغوا هندامهم وزيهم وجلوسهم وقيامهم وأكلهم وشربهم وما إليها من الأعمال الظاهرة الأخرى في قالب معين ، ثم يفوزون بأعلى درجات الإحسان إذا اختاروا لأنفسهم قدراً معيناً من النوافل والأذكار والأوراد وغيرها من الاعمال المستحبة شرعاً . ولكن كثيراً ما تشاهدون في حياة هؤلاء المتقين المحسنين بزعمهم أمارات تشهد شهادة ناطقة بأنهم لم يؤسسوا بعد صرح الايمان على أساس متين محكم . فما دامت هذه الأخطاء باقية ، فلا رجاء في نجاحنا في استكمال أدوات الاخلاق الاسلامية أبداً . فإذن لا بد

لنا من استكمال تصور المراتب الأربع : (الإيمان والإسلام والتقوى والإحسان) وإدراك ما فيها من ترتيب طبيعي فطري .

الايمان :

فلنبدأ بالإيمان الذي هو الأساس للحياة الاسلامية . ولا يخفى على أحد أن الايمان عبارة عن الاقرار بالتوحيد والرسالة . فاذا ما أقرّ بهما المرء استوفى الشرط القانوني لدخول المرء في الاسلام وأصبح من عداد المؤمنين . فإذن يكون من حقه أن يعامل معاملة المسلمين . ولكن هل يكفيه هذا الاقرار المجرد — الذي لا يعدو استكمال أداة قانونية — في أن يشيد على أساسه صرح الحياة الاسلامية بطبقاته الثلاث الباقية ؟ ومن دواعي الاسف وبواعث الأسى الشديد أن الناس لا يفهمون الأمر إلا كذلك ، ولأجل ذلك كلما رأوا هذا الاقرار المجرد موجوداً شرعوا في تشييد صرح الاسلام العملي ، وكذلك التقوى والإحسان الذي لا ينهض ولا يطول على هذا الاساس الواهي إلا ليسقط وينهار . أما الحياة الاسلامية الكاملة فلا بد لابرازها وتشييد صرحها أن يكون الايمان شاملاً محيطاً بجميع جوانبه ، راسخاً بعيد

الغور في تأصل جذوره . وأي شعبة تفوت من شعبه التفصيلية الواسعة تبقى تلك الشعبة نفسها في الحياة الاسلامية ناقصة البناء ، وحيثما يبق الضعيف في رسوخ الايمان وبعد غوره ، يبق بناء الحياة الاسلامية في الموضع نفسه عرضة للضعف والوهن والانهيار .

وخذوا لذلك الايمان بالله مثلاً ، وهو رأس الدين واللبنة الأولى من اساسه . فسوف تجدون أنه كلما جاوز الاقرار بالله صورته العادية وتناولته التفاصيل ، ظهر بمظاهر مختلفة لاتحصى ، فلا يعدو عند طائفة من الناس الاقرار بان الله تعالى له وجود وهو خالق هذا الكون ولا شريك له في ذاته . وعند طائفة أخرى ينكمش نطاقه وينحصر في أن الله هو إلـٰهنا فعلينا بعبادته . وعند طائفة أخرى تحد صفات الله تعالى وحقوقه وتصرفاته — على وسعها ورحبتها — بأنه عالم الغيب والشهادة ، السميع البصـــير ، مجيب الدعوات وقاضي الحاجات ولا شريك له في استحقاقه لجميع الصور الجزئية للعبودية ، وأن كتابه هو المرجع الأخير في جميع الشؤون الدينية على حسب مصطلحهم المحدود . ومما لا مجال فيه المريب أن هذه التصورات المختلفة لا يمكن أن يتكون بها منهج ونظام للحياة واحد بعينه ، بل كلما كان التصور

ضيقاً محدوداً كانت الصبغة الاسلامية في الحياة العملية والاخلاق أيضاً محدودة ، حتى إنكم ترون أن الذين قد بلغ عندهم الإيمان بالله إلى أقصى غاياته حسب التصورات الدينية الشائعة ، لا يعدو في نظرهم نطاق الحياة الاسلامية ان يجمعوا بين طاعة الله تعالى وبين الاذعان والتذلل للطواغيت ، أو أن يضموا نظام الكفر إلى نظام الاسلام حتى يحصل منها مركب جديد يجدون فيه كل ما تشتهيه أنفسهم .

وكذلك يختلف مقياس رسوخ الايمان بالله وبعد غوره باختلاف الناس . فمنهم من لايرضى ولو يبذل شيء حقير مما يعز عليه في سبيل الله مع إقراره وإيمانه به . ومنهم من يكون الله تعالى أحب اليه من بعض ما عنده من الاشياء ، كما تكون بعض الاشياء الاخرى أحب إليه من الله. ومنهم من يشري في سبيل الله حتى نفسه وماله ، ولكن يعز عليه التضحية بأفكاره وآرائه الخاصة أو سمعته التي قد نالها بين الناس . فهذه هي المقادير والمقاييس المحكمة التي يتعين بالنسبة اليها استقامة الحياة الاسلامية وتزلزل أمرها . وهكذا يخون الانسان أخلاقه الاسلامية في نفس الموضع الذي يكون فيه بنيان الايمان ضعيفاً واهناً .

فالحق أنه لا يمكن أن ينهض صرح الحياة الاسلامية الكاملة الخالصة إلا على دعائم ذلك الاقرار بالتوحيد الذي يحيط بجميع نواحي الحياة الانسانية ، الفردية والجماعية ، والذي يحسب الانسان بموجبه أنه هو وكل ما بيده من شيء ملك لله ويرى أن الله هو المالك الشرعي الحقيقي له وللعالم كله ، المعبود المطاع وله الأمر والنهي وأن لا ينبوع للهداية إلا هو ، وتطمئن نفسه بكل شعور إلى أن الانحراف عن طاعة الله أو الاستغناء عن هدايته أو اشراك غيره به في ذاته وصفاته وحقوقه وتصرفاته إن هو الا امعان في الضلالة من أي ناحية جاء أو في أي لون كان .

ثم ان هذا البناء - بناء الايمان بالله - لايمكن توطيد دعائمه إلا إذا رأى المرء في باطن أمره رأياً جازماً ، وقطع على نفسه بشعور كامل وارادة قوية أنه هو وكل ما بيده ملك لله وراجع إلى مرضاته ، وقضى على ما في نفسه من مقياس المرضا والسخط وجعله مذعناً لرضا الرب تعالى وسخطه ، ونفى عن نفسه الاثرة والكبرياء ، وصاغ نظرياته وافكاره وآراءه وميوله ونزعاته ومناهج تفكيره في قالب ذلك العلم الذي قد انزله الله تعالى في كتابه العزيز وخلع عن عنقه ربقة جميع أنواع الولاء الذي لايذعن لطاعة الله ، بل يمكن أن يقف في وجهها ، ومكن محبة الله تعالى ومودته من

سويداء قلبه، ونفى عن اعماق فؤاده كل صنم يطالبه باجلاله
واكباره اكثر من الله تعالى، وادغم حبه وبغضه وصداقته
وعداوته ورغبته ونفوره وصلحه وحربه ... الخ في مرضاته
تعالى حيث لاترضى نفسه الا بما يرضى به الله تعالى، ولا
تكره إلا مايكرهه الله تعالى . فهذه هي مرتبة الايمان
بالله الحقيقية وغايته المرموقة ، ومما لاخفاء فيه انه ما دام
« الايمان » ناقصاً محدوداً في سمته وشموله ونضجه واستحكامه
من هذه الوجوه ، فأنىّ يمكن وجود التقوى والاحسان ؟
وهل تسد هذا الخلل وتتداركه المبالغة في اعفاء اللحى أو
هيئة الأزياء أو عملية السبحات أو قيام الليالي ؟

ولكم أن تقيسوا على ذلك الايمان بالنبوة والكتاب
واليوم الآخر ... الخ . فانه لايكمل الايمان بالنبوة إلا إذا
آمن المرء بالرسول قائداً له مرشداً يهتدي بهديه ويتأسى
بأسوته في كل شأن من شؤون الحياة ، ورفض سائر الطاعات
والارشادات والهدايات التي تخالف هديه أو تستغني عنه .
وكذلك يبقى الايمان بالكتاب ناقصاً ما دامت في القلب
شائبة من شوائب الطمأنينة بهيمنة اصول ومبادىء للحياة
غير التي جاء بها كتاب الله تعالى ، أو كان القلب والروح
ينقصها القلق على عدم اتباع الدنيا لما انزل الله واتخاذها

اياه نظاماً لحياتها . وكذلك لايكمل الإيمان بالآخرة ما دامت نفس المرء لاترضى بإيثار الأخرة على الدنيا ورفض القيم الدنيوية بازاء القيم الأخروية ، ولايقلقه الشعور بالمسؤولية الأخروية عند كل خطوة يخطوها في الحياة الدنيا . فحيثما كانت هذه الاسس والدعائم منعدمة فأنى للحياة الاسلامية الشاملة أن يشيد بناؤها هنالك ؟ فلما حسب الناس أنه من الممكن أن يشيد صرح الاخلاق الاسلامية بدون توسعة هذه الدعائم وإكمالها واتقانها وارساخها ، آل بهم الامر إلى أنك تجد اليوم باب التقوى والاحسان ومراتبها العالية مفتوحاً على مصراعيه حتى في وجوه القضاة الذين يحكمون بغير ما أنزل الله ، والمحامين الذين يتخاصمون على أسس القوانين غير الشرعية ، والعمال الذين يدبرون شؤون الحياة الانسانية تحت نظام الكفر والإلحاد ، والزعماء والقواد الذين يتسابقون ويتنافرون في ما بينهم ليشكلوا الحياة البشرية ويؤسسوها على أصول المدنية والسياسة الكافرة . فهؤلاء القوم كلهم يعدون من المتقين المحسنين إذا اهتموا بافراغ ظواهر حياتهم وملامحهم في قالب معين ،وعودوا أنفسهم قدراً معلوماً من النوافل والأذكار والأوراد .

الاسلام :

فدعائم الايمان وأسسه التي ذكرتها لك آنفـــاً ، إذا تأصلت وتكملت وأخـذت في الارض مـكانها اللائق بها ، ينهض عليهـا بناء الاسلام الذي هو ثاني مدارج الاخلاق الاسلامية ، كما عرفت ممـا تقدم . فما الاسلام إلا عبارة عن ظهور الايمان في صورة العمل . فعلاقة الايمان بالاسلام كعلاقة البذر بالشجرة . فلا يظهر بالشجرة إلا كل مايكون في البذر ، حتى انك إذا اختبرت الشجرة عرفت ما كان وما لم يكن في بذرها . فكما انه لايكاد يمر بخلدك أن تنبت الشجرة وتبسق أغصانها من غير أن يبذر لها البذر في الارض . أوَ تأبى الشجرة أن تنبت وتؤتي ثمارها وإن بذر لهـا البذرُ في أرض طيبـة غير مجدبة ؟ فهذا مابين الايمان والاسلام بعينه . فحيثما كان الايمان ، كان لزاماً أن يظهر في حياة الانسان العملية وأخلاقه ومعاملاته للناس وقطعه أو وصله للأرحام واتجاه سعيه وكفاحه وميل طبعه وذوقه ومصرف أوقاته وقواه وكفاءاته إلى غير ذلك من كل جزء من سائر مظاهر حياته . وإذا وجدت ناحيةً من هـــذه النواحي يظهر فيها شيء غير الاسلام ، فاعرف أن الايمـان لايوجد في تلك الناحية ؛ وإن وجد ، فلا قوة فيه ولا

حياة . وإذا كانت الحياة العملية تجري بقضها وقضيضها في مجرى غير إسلامي ، فاعلم أن القلب خلو من الايمان أو قد بلغت الارض في جدبها وقحلها إلى حد بعيـــد حتى لايكاد بذر الايمان يؤتي فيها أثماره . فالذي أعتقده وأجزم به ، بعد ماقدر لي الله تعالى من مطـالعة الكتاب والسنة ودراستها ماقدر ، أنه من المستحيل وجود الايمان في القلب وعدم ظهوره بمظهر الاسلام في الاعمال .

وارجوكم في هذا المقام أن تجردوا أذهانكم من تلك المباحثات التي قتلهـا بحثاً الفقهاء والمتكلمون في باب الايمان والعمل وما بينهما من العلاقة ، ولكم أن تفهموا هذه القضية وتحيطوا بها علماً من كتاب الله رأساً . فالذي يظهر من القرآن الكريم واضحاً جلياً أن الايمان الاعتقادي والاسلام العملي متلازمان في مابينهما ، وقد قرن الله تعـالى بينهما في غير موضع من كتابه العزيز ، وأنه ماوعد بما وعد من حسن الجزاء والثواب إلا عباده الذين هم مؤمنون اعتقاداً ومسلمون عملاً . ثم الذي يتراءى لك من هذه النظرة في القرآن أن الله تعالى كلما آخذ المنافقين بجرائرهم يقيم الحجة على قلة إيمانهم بأعمالهم السيئة ، ويجعل الاسلام العملي هو الدليل على الايمان الحقيقي . غير أن الذي لاريب فيه ان

تكفير رجل من رجال الاسلام بحكم الشرع والقانون وإخراجه من حظيرة الأمة المسلمة لا يتعلق بهذا المقام، فان الحاجة فيه إلى الحيطة والتأني شديدة جداً، ولست الآن بصدد أن أذكر لكم ذينك الايمان والاسلام اللذين تترتب عليهما الأحكام والقضايا الفقهية في هذه الدنيا، وإنما أنا بصدد ذكر ذينك الايمان والاسلام اللذين ينفعان أو يضران صاحبهما عند الله يوم القيامة، وعليهما تترتب النتائج الأخروية. فانك إذا ضربت صفحاً عن القانون المجرد، ونظرت بعين الحقيقة والواقع، وجدت أنه حيثما كان السقم في استسلام المرء لربه وتفويضه أمره اليه في أعماله، وحيثما كان رضا نفسه مجافياً لرضا الرب تعالى، وحيثما كان مكباً على اشغال وأعمال غير السعي في سبيل إقامة الدين، وحيثما كانت جهوده ومساعيه تصرف في سبيل غير سبيل الله تعالى، كان إيمانه مصاباً بالنقص والضعف. ومن الظاهر طبعاً أنه لا يمكنه أن يشيد بناء التقوى والاحسان على أسس من الايمان والاسلام غير راسخة، ولو حاول أشد المحاولة في تشبيه ظاهر صورته وزيه بصور المتقين وأزيائهم والتمشي على اقدامهم في بعض أعمالهم. فالصور الظاهرة الخلابة إذا كانت خالية من روح الحقيقة، فانما مثلها كمثل رجل بالغ

الغاية في الجمال ، أُبقي جسدُه على الارض في زي مزخرف مبرقش بعد مافارقته روحه . فان انخدعتَ بظاهر هذا الجسد الملقى على الارض وعلقت به بعض آمالك ، لاتلبث أن تنكشف لك الحقيقة وتبوء بالخيبة والخسران في أول اختبارك في عالم الواقع ، فهناك تعلم علم اليقين أن رجلاً دميماً إذا كان حياً قوياً خير من رجل بالغ في الجمال والحسن إذا فارقته الروح . نعم ! من اليسير عليك أن تخدع نفسك بالصور الظاهرة الخلابة ، ولكنه لايمكنك أن تترك بذلك أي أثر في عالم الواقع ، أو تنال وزن قطمير في كفة ميزان الله تعالى يوم القيامة ، فان كنت لا تنخدع بالظاهر ولا تريد إلا ذينك التقوى والاحسان الحقيقيين اللذين ينفعانك في اعلاء كلمة الدين في الدنيا وترجيح كفة الخير في الآخرة ، فاعلم علم اليقين أن طبقتي التقوى والاحسان العاليتين لاترتفعان إلا إذا كان أساس الايمان راسخاً متأصلاً وأصبح الاسلام العملي — أي الطاعة والانقياد لله عملاً — دليلاً ساطعاً على رسوخه وتأصله .

التقوى :

ولكم أن تجتهدوا في فهم التقوى وإدراك معناها قبل

أن تتناولوا ذكر تفاصيلها . فما التقوى ، في حقيقة الأمر ، بعبارة عن زي مخصوص وهيئة معينة وطراز المعيشة بعينه ، وإنما هي عبارة عن حال النفس التي تتكون وتتولد من خشية الله تعالى والشعور بالتبعة وتظهر وتتجلى في كل ناحية من نواحي الحياة ومظهر من مظاهرها . فالتقوى الحقيقية هي أن يكون قلب المرء مستنيراً بخشية الله والشعور بعبوديته ، وأن يكون وعيه للقيام بين يدي ربه والمسؤولية أمامه يوم القيامة شديداً قوياً ، وأن يدرك إدراكاً تاماً قوياً أن ليست هذه الحياة الدنيا إلا مضماراً لامتحانه حيث قد بعثه الله تعالى ومتعه إلى حين من الزمن ، ولا تنحصر القضية في مستقبله الدائم إلا في شيء واحد وهو : كيف يستخدم قواه وكفاءاته المختلفة في هذا المضمار الامتحان وكيف يكون تصرفه في ما أوتي من المال والمتاع حسب المشيئة الربانية ، وماذا يكون من معاملته الذين تتصل بهم حياته من مختلف الجهات ؟ فكل من نشأ فيه هذا الحس وذلك الشعور ، فقد تنبه ضميره وزاد شعوره الديني جلاء وأصبح يحيك في قلبه كل مالا يوافق حب الله تعالى ، وصار يحاسب نفسه : ماذا ينشأ فيه من الميول والرغبات

وفيمَ يقتل أوقاته ويصرف مواهبـه وقواه من الاشغال ، وأخـذ يكف نفسه عن الوقوع في المشتبهات فضلاً عن المنكرات والمحظورات الصريحـة الواضحة ، وأجـبره ما في نفسـه من الشعور بالواجب على القيـام بجميـــع الاوامر والواجبات بكل طاعة وامتثال ، وأثرت فيه خشيته لله أبلغ تأثير ، حتى اتكاد تتزلزل أقدامه عندما يخـاف على نفسه من الاجتراء على حدود الله وأصبحت من ديدنه المحـافظة على حقوق الله ، وحقوق عباده في الارض ، ووجل قلبه من أن يأتي بشيء يخالف الحق والصدق .

وهذه الكيفية والحالة لاتظهر في حياة الانسان بصورة خاصة أو في نطاق للعمل ضيق محـدود ، بل هي تستولي على منهج فكرته وتتجلى في ماجريات حياته بأسرها ، وينشأ فيه بموجب تأثيرها من السيرة الحنيفية والخلق النزيه الطاهر ما لا يوجد فيه إلا الصفاء والطهارة والنظافة بطراز مخصوص في جميع وجوهه المختلفة . أما الذين لم تكن كلمة « التقوى » عندهم إلا عبارة عن اتباع المرء لبعض صور معينة ومواظبته على بعض طرق معلومة وافراغه ظاهره — بطرق متصنعة غير فطرية — في قالب مخصوص ، فهناك تجدهم اشداء في المواظبة على صور التقوى هذه التي قد تمرنوا وراضوا عليها

انفسهم بغاية من الاجتهاد والكد والاهتمام ، ولكن تجدهم في الوقت نفسه يظهر من نواحي حياتهم الأخرى من الأخلاق ومناهج التفكير وطراز العمل وطرق السعي والجد ما لايلتئم ولا يتوافق مع مقتضيات الايمان البدائية فضلاً عن مقام التقوى الأسمى . وهذا كما قال السيد المسيح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بلغته الخاصة : « أيها القادة العميان الذين يفصون من البعوضة ويبلعون الجمل . »[1]

ولك أن تدرك هذا الفرق بين التقوى الحقيقية والمتصنعة بأن أضرب لك مثلاً رجلين احدهما يشعر بالنظافة والطهارة شعوراً كلياً ، وفيه ذوق بالغ في الصفاء والزكاء ، فهو يكره نفس القذر ولو كان في أي نوع من أنواعه أو شكل من اشكاله ، ويؤثر نفس الطهارة ويرغب فيها ولو لم يكن في وسعه الاحاطة بجميع مظاهرها . أفيستوي هو ومن ليس عنده أي شعور بالطهارة ولكن يحمل بيده فهرساً مطولاً لاسماء طائفة من الاقذار والادناس قد استنسخه من هنا أو هناك ، فيتجنب تلك الاقذار والادناس التي اندرجت في هذا الفهرس أشد تجنب ، ولكنه متلوث بكثير من

---

(١) انجيل متى الباب ٢٣ الاية ٣٤ .

الادناس المختلفة التي هي أشد وأغلظ من التي يتجنبها ، بمجرد أنها لم تندرج في هذا الفهرس لسبب من الاسباب .

وليس هذا الفرق الذي انا بصدد بيانه لك في هـذا المقام بفرق نظري فحسب ، بل انك لتراه ملموساً متجلياً بعيني رأسك في حياة اولئك الذين طبقت سمعة ورعهـم وتقواهم الآفاق ، يبالغون في الاهـتمام بالجزئيات الشرعية والمحافظة عليها حتى أنهم يفسقون كل من كان في لحيتـه شيء من القصر عن ذلك القدر المخصوص الذي قد عينوه لطول اللحية ، ويتوعدون بدخول النار كل من اسبل ازاره إلى اسفل من كعبيه قليلاً ، ويكادون يعدون الانحراف عن اتباع الاحكام الفرعية لمذهبهم الفقهي خروجاً من دين الله . هذا في جانب ، وبجانب آخر قد اسرفوا إسرافاً شديداً في اغفالهم لاصول الدين وكلياته ومبادئه الاساسية ، حتى لقد جعلوا حياة المسلمين بأسرها قائمة على الرخص الشرعية والمصالح السياسية واخترعوا من الحيل والمكايد لاعراضهم عن بذل شيء من جهودهم في سبيل إقامة الدين مالا يأتي عليه الاحصاء ؛ والذي هم باذلون فيه جل هممهم ومساعيهم أن يرسموا للمسلمين خطة « المعيشة الاسلامية » تحت غلبة الكفر وسيطرته واستيلاء نظامه ، وهم الذين اقنعت زعامتهم وامامتهم

عامة المسلمين بأنهم يستطيعون أن يعيشوا « عيشة دينية » في نطاق ضيق ويبرئوا ذمتهم من جميع مقتضيات الدين ولو كانوا مغلوبين على أمرهم تحت نظام غير إسلامي ، بل ولو كانوا باذلين في سبيل خدمته مهجهم وأرواحهم وليس لهم وراء ذلك مطمح يجاهدون في سبيله ويسعون وراء تحقيقه .

واشد من ذلك وأدعى إلى البكاء والويل انه إذا تجرأ أحد وعرض على هؤلاء القوم مقتضيات الدين الحقيقية وحاول لفت انظارهم إلى السعي في سبيل اقامة الدين ، فانهم لا يقتصرون على أن يصعروا خدودهم ولا يعيروا اقوله شيئاً من الاهتمام والعناية ، بل لايذرون شيئاً من التعلات إلا يأتوا به ليتقاعسوا عن هذا السعي هم انفسهم ، ويصدوا عنه غيرهم من المسلمين ، أوَليس من العجب العجاب أن كل ذلك لايمس روعهم وتقواهم في قليل ولا كثير ؟ ولا يكاد يشك اولو العقلية الدينية في كمال تقواهم أصلاً ؟ وكذلك لايزال الفرق بين التقوى الحقيقية والمتصنعة يبدو في صور ومظاهر أخرى كثيرة ايضاً ويسهل عليك إدراكه إذا كان التصور الجوهري للتقوى واضحاً غير مبهم في ذهنك .

ولا يذهبن بكم سوء الظن بما قلت إلى أنني أريد الاستخفاف بما نص عليه في الحديث النبوي من الآداب

والاحكام المتعلقة بالهيئة الظاهرة والزي والملبس وآداب المعيشة ، ومعاذ الله أن أتجرأ على مثل هذا الرأي أو يخطر لي ذلك على بال . والذي أريد القاءه في روعكم أن ملاك الامر وجوهره هو حقيقة التقوى لامظاهرها الملموسة هذه . فكل من نشأت وتأصلت في قلبه حقيقة التقوى فقد اصطبغت حياته كلها بصبغة من الحنيفية والاستقامة واصبحت حياة إسلامية خالصة ، ولا يزال الاسلام بشموله الاتم يبدو ويتجلى شيئاً فشيئاً في أفكاره وعواطفه وميوله وذوقه الشخصي وانقسام أوقاته ومصارف مواهبه وطرق سعيه وكفاحه ومنهاج عيشته ومكسبه وانفاقه وما اليها من نواحي حياته الدنيوية الاخرى . أما إذا عكستم الامر وآثرتم المظاهر على الحقيقة وبالغتم في العناية بها فوق ماتستحقه ، وابيتم الا الامتثال لبعض الاحكام والاوامر الظاهرية بطريقة غير فطرية من غير أن تلقوا في الأرض بذراً للتقوى الحقيقية وتتعهدوه بالسقي ، فلن تبوءوا إلا بالنتائج نفسها التي ذكرتها لكم آنفاً . ففي الصورة الأولى يحتاج المرء إلى غاية من الصبر والاناة والتريث ، فان النتائج فيها تتدرج في النماء وتتأخر إلى مدة من الزمن . وذلك كما تشاهدون في بذرة تلقونها في الارض ، فان الشجرة التي تنبت منها

لا تكبر وتتكمل وتؤتي ثمارها وازهارها في يوم أو يومين ، بل يمضي عليها ما يمضي من السنين الطوال المديـدة . فلذا يمل هذه الصورة ويشمئز منها الذين في طبعهم النزق والاستعجال . أما في الصورة الثانية ، فان النتائج لاتلبث أن تتمثل أمام أعينكم بكل سرعة وبـكل سهولة . وذلك كما تنصبون في الأرض قطعة من الخشب تشبه الشجرة في هيئتها وصورتها الظاهرة وتعلقون بها من الاوراق والازهار والاثمار مايجملها في أعين الناظرين . ومن ثم تجدون هذه العملية الثانية اليوم أكثر رواجاً وانفق سوقاً من الأولى في الاندية والمحافل . ولكن الحق أن الآمال والاماني التي تحققها شجرة فطرية يمكن أن يأتي ولا عشر معشارهـا من مثل هذه الاشجار المتصنعة .

الاحسان :

هذا ، وهيا بنا الآن لنتناول في الختام « الاحسان » فانه أعلى طبقات الاسلام وارفعها كما عرفتم . فالاحسان في الحقيقة ، هو عبارة عما يجعل المرء متفانياً في الاسلام من صلة قلبية بالله ورسوله وحب متأصل ووفاء صـادق وبذل المهج وتضحية بالنفوس والنفائس . فتصور التقوى الاساسي هو خشية الله وخوفه ، وهو الذي يستحث المرء على اتقاء

سخطه . وأما الاحسان فتصوره الاساسي هو حب الله الذي يحمل المرء ويحضه على ابتغاء مرضاته . ولكم أن تدركوا ما بين التقوى والاحسان من الفرق بأن أضرب لكم مثلاً موظفي حكومة من الحكومات . فمنهم من يقومون باداء ما يلقى اليهم من الواجبات بكل شعور بالتبعة واجهاد النفس ويواظبون على جميع ضوابط الحكومة وقواعدها ولا يأتون بشيء يخالف مصلحة من مصالحها ويجلب عليهم اعتراضها . وبازائهم طبقة أخرى من المخلصين الصادقين الأوفياء الذين ينتصرون للحكومة بأنفسهم وأموالهم ولا يقتصرون على اداء مايلقى عليهم من الواجبات ، بل لايزالون يجيلون تفكيرهم ويصرفون همتهم في ايجاد طرق ومناهج للعمل يرقون بها صالح الحكومة ويعلون بها كلمتها ، فيعملون ويجتهدون بموجب هذه النزعة أكثر مما يطالبون به ، وكلما يرون شيئاً يهدد سلامة الحكومة ، يضحون في سبيل الدفاع عن كيانها بما في وسعهم من الانفس والاموال والاولاد . وكلما يجدون القانون تنقض قواعده يشعرون بألمه في صدورهم . وكلما يشمون رائحة للغدر يقلق بالهم ولا يدخرون ما في وسعهم من المهج والأرواح في إطفاء شعلته واجتثاث جذوره من الأرض . وإنما يكون أحلى أمانيهم ، وهم في سبيله

يسمون ، أن تكون دولتهم مرهوبة المقام مرفوعة الرأس من بين دول العالم كلها ، ولا يبقى صقع من اصقاعهـا الا ويكون علم دولتهم مرفوعاً في أجوائه . فهؤلاء هم محسنون للحكومة وأولئك متقون لها . ولا شك أن المتقين يرفعون درجات وتتدرج أسماؤهم في جدول اسماء الموظفين الأوفياء للحكومة ، إلا ان المحسنين هم الذين ينعمون بأعلى الدرجات التي لا تتطلع اليها اعناق المتقين ولا غيرهم . ولـكم أن تقيسوا على ذلك المتقين والمحسنين في الاسلام . فالمتحلون بالتقوى ، وإن كانوا رجالاً يوثق بهم ويعتمد عليهـم ، ولكن قوة الاسلام وحيويته الجوهرية إنما تتجمع وترتكز في المحسنين وحدهم ، ولا ينهض بالمهمة التي يريدها الاسلام في هذا العالم الا هذه الطبقة من المحسنين وحدها .

فاذا كنتم قد أدركتم حقيقة الإحسان هذه ، فتفكروا في شأن أولئك الذين يرون بأم أعينهم ان دين الله قد رزىء وغلب على أمره بيد الكفر وأهله ، وان حدود الله ما انتهكت واعتدي عليها فحسب ، بل يشاهدون أنها تكاد تنعدم من الوجود لأجل غلبة الكفر ؛ وان شريعة الله قد أهملت ونبذت وراء الظهور لا عمـلاً فقط بل بموجب القانون أيضاً ، وان أرض الله قد اعتلت فيها كلمة أعداء

الله ، ويشاهدون أن المجتمع الانساني العام قد دب دبيب الفساد في أخلاقه ومدنيته بموجب غلبة نظام الكفر ، بل الامة الاسلامية نفسها قد رزئت ولا تزال تُرزأ بكثير من الضلالات الخلقية والعملية بغاية من السرعة والشدة ؛ — يرون كل ذلك ويحسونه بين كل آونة وأخرى . ولكن لا تكاد تتنغص عليهم حياتهم ، ولا يكاد ينبض بهم عرق الغيرة حتى يقوموا للعمل على أن يستبدلوا حياة صالحة راشدة بهذه الحالة المخجلة الحاضرة . بل الأمر أنهم بالعكس من ذلك يسعون دائماً ويستخدمون كل ما أُوتوا من الذكاء والفطنة في اقناع عامة المسلمين — مبدأ وعملاً — بغلبة نظام الكفر وسيطرته عليهم . فكيف يمكن أن يعد أمثال هؤلاء من طبقة المحسنين ، وكيف يمكن لهم أن يتمتعوا بمرتبة الاحسان العليا مع هذا التهاون العظيم في أمر الله ، ويظلوا مستمتعين بمجرد أنهم يقومون الليالي ويؤدون صلاة الضحى ويصرفون أعمارهم في الأذكار والاوراد والرياضات الصوفية ويلقون دروساً للقرآن والحديث ويبالغون في الاهتمام بفروع الفقه والسنن غير المهمة ويدربون أتباعهم في زواياهم التي بنوها لتزكية النفس على فن التدين الذي إن كان يشتمل على لطائف الحديث والفقه والتصوف ونكاتها،

فانه لا يشتمل على لباب الدين وقوام أمره ، ألا وهو عدم الاستسلام لحاكمية غير الله وبذل النفوس والنفائس في سبيل اقامة الدين واعلاء كلمة الحق .

وهذا الفرق بين الوفي الناصح والعدو الغادر لا تكاد تخلو منه حتى ولا عامة الدول والامم الدنيوية في الارض فلان قامت ، مثلاً ، في بقعة من بقاع الدولة طائفة من الناس خارجة عليها أو تسلط عليها العدو من الخارج ، فالذين يستجيزون سلطة الاعداء والغادرين أو يطمئنون إليها اطمئناناً ويصالحونهم على شروط ينم على ذلتهم واستكانتهم أو يشكلون تحت اشرافهم نظاماً للبلاد لا تكون أزمة الامور وخزائن البلاد إلا بأيدي هؤلاء الاعداء ويقتنعون في أنفسهم بجانب من الحقوق والتصرفات الجزئية ، لا تجد دولة من دول الارض أو أمة من اممها تعد أمثال هؤلاء الناس الذين يميلون إلى العدو ويجنحون له من رجالها المخلصين الامناء الصادقين ، ولو كانوا بالغين أقصى الغاية في التشدد بزيهم القومي واتباع قانونهم القومي في شؤونهم الجزئية . وها هي البلاد التي خرجت من حوزة ألمانية بعد الحرب العالمية الثانية ماثلة أمامكم ناطقة بصحة ما قررت . أفرأيتم بماذا يعامل فيها

الآن أولئك الاقوام من أهلها الذين مدوا إلى ألمانية يد المصالحة والتعاون عندما استولت على بلادهم ؟ فهؤلاء الامم والدول الغربية اللا دينية ليس عندهـــا إلا مقياس واحد لاختبار الوفاء والاخلاص ، وهو مزاحمة الرجل لسلطة العدو على بلاده وعمله في سبيل القضاء عليها وبذله الجهد المستطاع في ارجاع تلك السلطة التي هو مدعي الوفاء بها . أفمن حسبانكم إذن أن الله تعالى أقل من رجال الدنيا الناقصي العقل والبصيرة هؤلاء تمييزاً بين أوليائه وأعدائه . أفتراه ينخدع بطول اللحى وعملية السبحات والاشغال والاوراد والوظائف والتطوعات والمراقبات وما إليها من الاعمال الاخرى ويعدكم من أوليائه ؟

أمثلة لسوء التفاهم في هذا الباب وإزالتها :

سادتي الكرام ! الآن ، وأ كاد أن انتهي من كلمتي هذه ، أريد أن أبين لكم شيئاً واحداً مهماً . وهو أنه قد سيطرت على أذهان عامة المسلمين اليوم أهمية الفروع والظواهر بسبب كثير من التصورات والنظريات الخاطئة الضيقة حتى أصبحوا لا يكادون يبرحون هذه المسائل التافهة والظواهر السفسافة مهما بذلتم من جهودكم وحاولتم بكل وسيلة لفت أنظارهم

إلى اصول الدين وكلياته وجوهر التدين والخلق الاسلامي الحقيقي ، فكأنهم قد جعلوا هذه الفروع والمسائل الجزئية أصلاً لدينهم وأساساً يشيدون عليه بنيانه . وهذا الوباء الشامل نرى كثيراً من أعضاء جماعتنا وأنصار دعوتها قد تأثروا به بعض التأثر . وقد استنفدت كل جهدي في ما مضى في افهامهم وتلقينهم حقيقة الدين وما فيه لمثل هذه الامور من أهمية وما يستحق التقديم وما يستحق التأخير من تعاليمه المتشعبة . وكذلك قد بلغني أن من الناس من يرون أن الجماعة ينقصها ذلك الشيء الذي يعبرون عنه « بالروحانية » ، على حين أنهم لا يكادون يحددون بأنفسهم ما يريدون بتلك الكلمة من معنى . ومن ثم يرون أن يختاروا من الغاية ومنهاج السير إليها نفس ما اختارته الجماعة نفسها ، ثم يرجعوا لتزكية النفوس وتربية الروحانية إلى الزوايا . والذي تنم عنه هذه الافكار والآراء ضرورة أنه لم ينضج بعد في الناس فهم الدين وإدراك تعاليمه بالرغم مما بذلنا لهذا الغرض من الجهود المتتابعة . وها قد بنيت لكم آنفاً « الايمان والاسلام والتقوى والاحسان » فان كنتم ترون في هذه الكلمة شيئاً اختلقته من تلقاء نفسي معرضاً عما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ، فلكم أن تنبهوني عليه وتهدوني

إلى الصواب في أمره . وأما إذا كنتم تسلمون وتعترفون أن كل ما بينت من حقيقة هذه الكلمات الاربع هو موافق لما جاء في الكتاب والسنة ، فتفكروا هل يمكن أن توجد تلك الروحانية التي أنتم في صدد البحث عنها في أماكن لم تتحقق فيها مقتضيات الدين ، ولم تتأصل فيها جذور التقوى والإحسان ؟ أما فروع الشرع التي تعدونها من مطالب الدين الاولية ، فأرى أن أكرر لكم بيان منزلتها الحقيقية في الدين بشيء من الإيضاح والتفصيل ، حتى أتبرأ مما ألقي على كاهلي من تبعة البلاغ الثقيلة .

ولكم أن تتفكروا قبل كل شيء لماذا ولأي غرض أرسل الله تعالى رسله وأنبياءه إلى هذه الدنيا ؟ وأي شيء كان ينقص الدنيا حتى بعثهم لايجاده فيها ؟ وماذا كان فيها من فساد وأرسلهم لرفعه والقضاء عليه ؟ أفكان ذلك أن الناس ما كانوا يعفون لحاهم ، فأرسل الله تعالى رسله لدعوة الناس إلى اعفائها ؟ أم كانوا يسبلون أزرهم فأمر الله أنبياءه أن يدعوا الناس إلى الكف عن ذلك ؟ أم لم تكن هذه السنن التي تهتمون بها أشد اهتمام ، جارية في الارض ، فجاءت الرسل لاجرائها وترغيب الناس فيها ؟ ولعمري إنكم إذا تأملتم في هذه المسائل ، شهدت لكم قلوبكم شهادة ناطقة

أنه لم تكن مفاسد الدنيا وسيآتها من هذا القبيل ، وما كان بعث الرسل لغرض من هذه الاغراض . فاذا لم يكن الامر كذلك ، فتفكروا من أي نوع كانت تلك المفاسد والمنكرات التي كانت الدنيا مبتلية بها فجاءت الرسل لازالتها واجتثاث جذورها ، وماذا كانت تلك الحسنات التي كانت دعوة الانبياء إلى اقامتها وتحلية الحياة البشرية بمقتضياتها ؟ أفيسعكم أن تجيبوا على كل ذلك إلا بأن المفاسد والمنكرات الحقيقية التي كانت شائعة في الدنيا ، فجاءت الرسل والانبياء لتقليص ظلها والقضاء عليها : إنما كانت : انحراف النـاس عن عبودية الرب تعالى وطاعته ، واتباعهم للقوانين والاصول الوضعية وعدم شعورهم بمسؤوليتهم بين يدي الله تعالى يوم القيامة ؟ فمنها نجَم قرن الاخلاق الفاسـدة ، وراجت في حياة العباد الاصول الخاطئة المضلة وطبّق الفساد مشارق الارض ومغاربها . ثم كان الغرض من بعث الرسل وارسال الانبياء أن ينشأ في النـاس الشعور بعبوديتهم وولايتهم لله ومسؤوليتهم بين يديه يوم القيامة ، وترقى الأخلاق الفاضلة ويقام نظام الحياة الانسانية على تلك الاصول والدعائم التي بها ينمو وينهض الخير والصلاح ويتقلص ظل الشر والفساد

وتنتكس رايتها ؟ فانما كان هذا هو الغرض الوحيد من بعث الرسل والأنبياء ، والدعوة إليه جاء أخيراً خاتمهم وسيدهم وسيد البشر أجمعين محمد بن عبد الله ﷺ .

ثم انظروا قليلاً في ما تحرى النبي ﷺ من التدرج والترتيب للبلوغ إلى هذه الغاية ؟ فقد قام بدعوة الناس — أولاً وقبل كل شيء — إلى الإيمان وأحكمه في قلوبهم وأتقنه على أوسع القواعد وأرحبها ، ثم نشّأ في الذين آمنوا تعليمه وتربيته طبقاً لمقتضيات هذا الإيمان تدرجاً ، الطاعة العملية — أي الاسلام — والطهارة الخلقية — أي التقوى — وحب الله والولاء له — أي الاحسان — ثم شرع بسعي هؤلاء المؤمنين المخلصين المنظم المتواصل في تحطيم النظام الفاسد للجاهلية القديمة واستبدال نظام صالح به ، قام على القواعد الخلقية والمدنية المقتبسة من القانون الالهي المنزل من الرب تعالى . ثم لما أصبح هؤلاء الذين آمنوا به ولبوا دعوته من كل وجهة — بقلوبهم وأذهانهم ونفوسهم وأخلاقهم وأفكارهم وأعمالهم — مسلمين متقين محسنين بالمعنى الحقيقي وانصرفوا بأنفسهم إلى ذلك العمل الذي ينبغي لعباد الله المخلصين الأوفياء أن ينصرفوا إليه — إذن وبعد كل ذلك أخذ النبي ﷺ يرشدهم إلى ما يزين حياة المتقين المحسنين

من الآداب والعـادات المهذبة في الهيئة والملبس والمأكل والمشرب والمعيشة والقيام والجلوس وما إلى ذلك من الشؤون الظاهرة الاخرى . وكأني به فتت الذهب ونقاه من الأوساخ والأقذار أولاً ، ثم طبع عليه بطابع الدينار ، ودرب المقاتلين أولاً ثم كساهم زي القتال . وهذا هو التدرج الصحيح المرضي عند الله في هذا الباب كما يبـدو لكل من تأمل القرآن والحديث وتبصر فيهما . فان كانت كلمة اتباع السنة النبوية عبارة عن اختيار المرء خطة العمل التي كان قد اختارها النبي ﷺ تحت الهداية الربانية إكمالاً لمشيئة الرب تعالى وتبرئة لذمته من مقتضيات العبودية ، فليس من السنة في شيء أن تكسوا ملابس المتقـين وتحـاولوا افراغهم في قالبهم الظاهري المتصنع حتى يتشبهوا بهم في بعض أعمالهم الرائجة الشهيرة المرغوب فيها بين عامة الناس من غير أن تخلّقوهم بأخلاق المؤمنين والمسلمين والمتقين والمحسنـين وتحلوهم بصفاتهم الحقيقية من الغش والخداع أن تضربوا على قطعات من النحاس والرصاص بطوابع الدينار وتنفقوها في السوق ، أو تكسوا الناس ملابس الجنود وتبوؤهم مقاعد للقتال في ساحة الحـرب من غير أن تدربوهم على صفات البسالة والشجاعة والوفاء والإيثار والتضحية . فمن نتائج هذا الغش

والخداع أنه لا تروج اليوم دنانيركم الزائفة في أسواق العالم ولا يرجع إليكم جنودكم الموهون بشيء من الظفر والانتصار في ميدان الحرب. أفتعلمون أي شيء هو أعلى قدراً وارفع منزلة عند الله ؟ فلتفرضوا أن لديكم رجلاً يؤمن بالله إيماناً صادقاً، ويشعر بالمسؤولية شعوراً تاماً ويحافظ على حدود الله أشد محافظة ويؤدي كل ما عليه من واجب الولاء لله والاخلاص والتضحية في سبيله، إلا أنه ناقص الحظ في زيه الظاهر واحط كعباً في الآداب الظاهرة ؛ فأقل ما يكون له منزلة عند الله أنه خادم وفي صالح ولكن فيه بعض من سوء الأدب، وربما لا يتمكن بسبب ذلك من نيل المراتب العالية والدرجات الرفيعة عنده. ولكن هل تحسبون مع قلة عنايته بالزي الظاهر أن الله ربه وسيده يحيف عليه ويبخسه الاجر على هذا الولاء والاخلاص والتضحية ويصليه النار بمجرد أنه لم يكن جميل الهيئة حسن الآداب ؟ ثم افرضوا أن لديكم رجلاً آخر قد بلغ الغاية في الاهتمام بزيه الجميل الشرعي ويراعي أشد الرعاية في التزامه بالآداب الشرعية، ولكنه ناقص الحظ في ولائه لله وشعوره بالتبعة وغيرته على الايمان، فماذا يكون من تقدير الله لهذا الكمال الظاهر مع هذا التفريط العظيم والنقص البالغ ؟ وليست هذه بمسألة من

المسائل القانونية المعضلة تحتاج لحلها والوقوف عليها إلى تصفح الكتب الضخمة ، وإنما يعلم كل فرد من أفراد البشر بفضل عقله السليم أيّ هذين الأمرين يستحق القدر والإجلال عند الله ؟ حتى إن الذين لم يؤتوا إلا قليلا من العقل وملكة التفكير من أهل الأرض ليدركون بكل سهولة أنه لا يستحق أي تقدير أو اجلال في حقيقة الأمر . وها هي الحكومات الغربية ماثلة بين أيديكم بما في أهلها من الافتتان بالأزياء الظاهرة والاهتمام بالآداب والعوائد البادية للعيان ، أفتعلمون ما هو أجل قدراً وأرفع منزلة عندهم ؟ انهم إذا وجدوا ضابطاً من ضباط جنودهم يعمل الفكر والروية ويستنفد القوى الجسدية والفكرية في اعـلاء كلمتهم ورفع علمهم ولا يدخر شيئاً من مساعيه وجهوده ولا يأبى التضحية بنفسـه ونفيسه عندما يبلغ الأمر مبلغ الجد يبالغون في إجلاله ورفع مقامه ولو بلغ في الجلافة وقلة الأدب مبلغاً عظيماً : لا يحلق لحيته إلى أيام ويلبس ملبسـاً غير منسق ولا يعرف آداب الأكل والشرب ويجهل فن الرقص جهلاً تاماً . وبالعكس من ذلك عندما يرون ضابطاً آخر من ضباطهم يكون أمة وأسوة — في نظرهم — في زيه وهندامه وحسن آدابه

وتحليه بالعوائد والرسوم الرائجة في مجتمعهم ولكنه ناقص الحظ في ولائه وتضحيته في سبيل الدولة ويؤثر نفسه واستراحته ومصالحه الذاتية على مقتضيات الغيرة القومية عند ساعة الجد والعمل ، فلا يتحرجون من محاكمته العسكرية فضلاً عن أن يرفعوا درجاته ويبالغوا في اكرامه وتبجيله. فاذا كانت هذه حال رجال الدنيا ناقصي العقل والمعرفة ، فما ظنكم بربكم الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء . أفيستوي عنده الذهب والنحاس ، وينخدع بطابع الدينار على وجه النحاس ، ويعد الذهب فلساً إذا كان مطبوعاً بطابع الفلس ؟

ولا يحملنكم ما بينت آنفاً على الظن بأني بصدد نفي المحاسن والمحامد الظاهرة أو الاستخفاف بتلك الأحكام والأوامر التي وردت بها السنة — على صاحبها ألف تحية وسلام — في شأن اصلاح وجوه الحياة الظاهرة وتهذيبها . كلا ! بل الذي أقول به وأعتقده أن العبد المسلم يجب عليه الامتثال لكل ما أمر به الله ورسوله ﷺ . وكذلك أعتقد من نفسي أن الدين يريد أن يهذب ظاهر العبد كما يريد أن يهذب باطنه ، ولكن الذي اريد أن أرسخه في أذهانكم وألقيه في روعكم بوجه خاص في هذا المقام أن

بباطن العبد واصلاحه وتهذيبه أرجح وأقدم من ظاهر العبد واصلاحه وتهذيبه . فنوروا باطنكم بجوهر الحقيقة قبل أن تفرغوا ظاهركم في قالب الحقيقـــة . ولكم أن تتفكروا وتستنفدوا قواكم في التحلي بتلك الخصال والصفات التي هي جديرة بالقدر والاجلال عند الله في واقع الأمر والتي ماجاءت الرسل والانبياء إلا لترويجها وتنميتها . أما الزينة الظاهرة فاني واثق بأن تتولد بنفسها نتيجة لهذه الصفات الباطنة . وأما إن بقي فيها شيء من النقص ، فيمكن الاهتمام بتـداركه عند اكمال المراتب والمراحل .

سادتي ورفقائي ! قد ألقيت بين أيديكم هذه الخطبـة المسهبة لأبين لكم الامر الحق بكل ايضاح وتفصيل . وذلك أني أريد أن أبرىء ذمتي أمام الله يوم القيامة من واجب شهادة الحق . فان الحياة لا عبرة بها ، ولا تدري نفس ماذا تكسب غداً ولا تدري نفس بأي أرض تموت . واني أرى من الواجب على نفسي أن أبرىء ذمتي من مسؤولية البـلاغ ، فاستوضحوني أيها الاخوان ان كان لديكم أمر يحتـاج إلى مزيـد الشرح والايضـاح . وإن كان قد فرط مني شيء يخالف الحق ويضـاده ، فردوه عليَّ . وإن كنت قلت

الحق ، فاشهدوا به أمام الله والملائكـة والناس أجمعـــين .
(الاصوات : إنا شاهدون . إنا شاهدون ....) .

وفي الختام أدعو الله تعالى أن يجمعنا على الخير ويثبت أقدامنا ويوفقنا لفهم دينه فهماً صحيحاً ويهدينا إلى أداء جميع مطالبه ومقتضياته طبقاً لهذا الفهم .

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين





الفهرس